مقاهي بغداد

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

ملحق اسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

العدد (1644) السنة السابعة
الاثنين (2) تشرين الثاني 2009

4
المقاهي الادبية

10
مقهى (الواق واق) في الأعظمية

غريزة المقهى

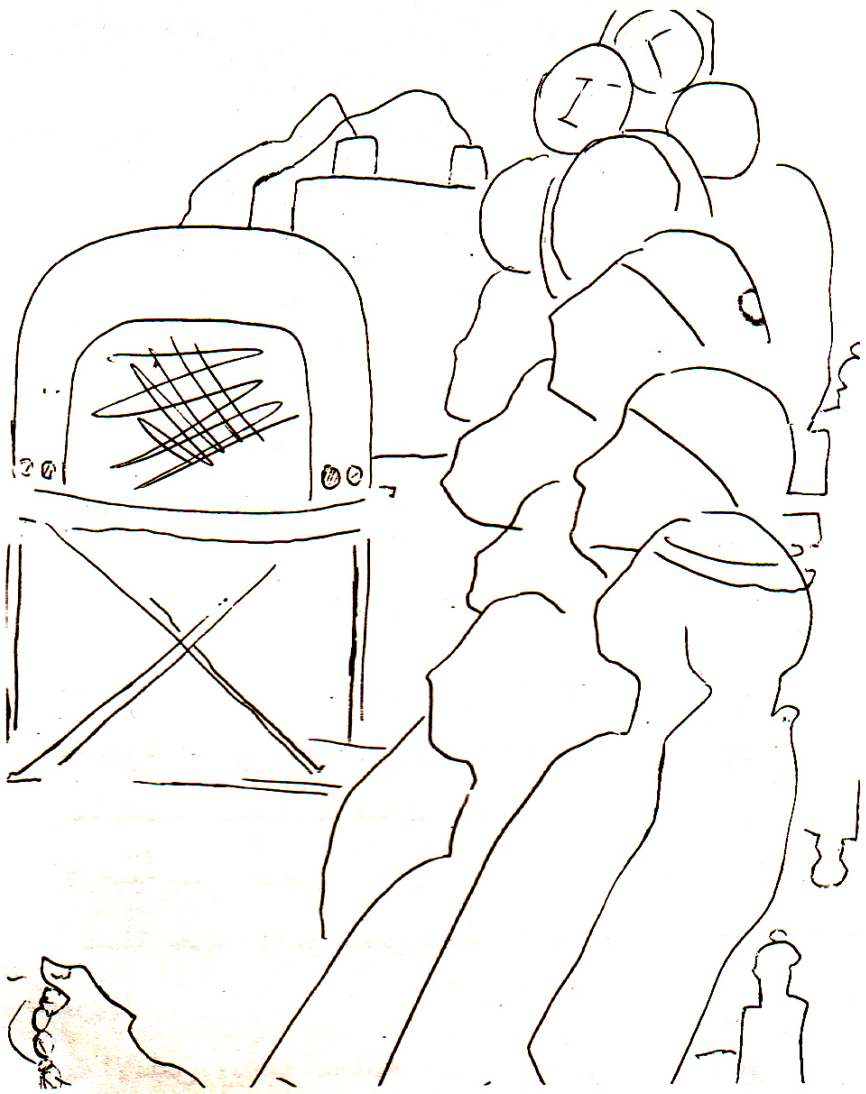

تخطيطات: د. ماهود احمد

مالك المطلبي

×يحمل شريط الارض، المتخذ تسمية تاريخية (شارع الرشيد) يحمل على طول ظهره ظاهرة المقاهي.
البلدية، الزهاوي، فحسن عجمي، فالبرلمان، فالبرازيلية، فالبيضاء، (تقبع البيضاء في حجر ابي نواس وشارع ابي نواس ليس سوى التسمية الليلية لشارع الرشيد)..

×ارجو ان يتنبه القارئ، الى انني ربطت مقاهي النص، بالفاء، وان مغزى ذلك ان الترتيب يعني ان نصعد من البلدية الى البيضاء، ولايمكن عكس الامر، وهذا ما سيتضح في مستقبل هذه الكتابة.

(١)

قبل عقدين كانت العلاقة بين (دجلة) و(المقاهي) ذات طابع اجتماعي (تبادلي)، بين حشدين من سكان البروسكان الماء كانت العلاقة اشبه بحوار تتخلله ابنية، اما الان فقد ادار دجلة ظهره احتجاجا على مجازر الحيوان النقدية (المطاعم) ومخازن الرطوبة (موبيليات سوق هرج) التي استبدلت بالمقاهي هذه.

ويا للاسف! فنحن نتحدث عن كائنات اكثرها مات، او شاخ، او اختفى (مات البلدية عجوزا، والزهاوي حي، لكنه اقرب شبها الى مومياء، منه الى مقهى، وحسن عجمي كشف رأسه! والبرلمان انتحر، والبرازيلية تقاعد، اما مقهى البيضاء فكان موته عبارة عن اختفاء غامض)..

حشد من الحيوات بأمكنتها زال من البسيطة! ولم يبق منه سوى آثار مطمورة تحت جلودنا.

(٢)

على الرغم من ان تاريخ المقاهي قريب، فانه يبدو، عبر قانون الزوال، تاريخا كهفيا، هكذا تبدو المقاهي الان: في طبقة من طبقات الذاكرة! محشورة مع جمع من الاموات والاحياء (واصغرهم كهل) وكأنهم صور شارع الرشيد التي تجمدت بالابيض والاسود، وهي تعطينا احساسا بأننا احياء، اكثر مما تعطينا احساسا بأن سكان الصور، اموات!..

فما اقوم به الان لاينتمي الا لعلم الاثار الذهني، الذي يحاول تفكيك (دال) المقهى القديم، المكون من الاف الخطى القصيرة، التي امحت في فراغ الكنبات، متحدة بملايين ضربات خرز السبحات، بملايين الكلمات التي تكون، دائما، ارباع جمل! بالزجاج الخارجي الممسوح، ابدا، بالفضول المتبادل بين الجالس والسائر، بالمشاريع الادبية التي لاتنمو! بغريزة الشرب، نعم للمقهى غريزة، شأنه شأن الحيوان، لكنها غريزة وحيدة، وليست منظومة غرائز انها غريزة الشرب.

بعض الاحيان، لاسيما في مقهى الظلام المختلف (البلدية)، في حدة الظهيرة، نحس، نحن الذين لانظهر الا جالسين، او نائمين (الوقوف هو الممنوع الوحيد في المقهى) نحس بفوران غريزة الشرب، وهي تصفر كقطار موشك، على الاصطدام من فوهات غلايات الماء الابيض، والشاي، والحامض والدارسين، وسحبها فوق الرؤوس لتكون ما يشبه مطرا لاينزل!.

(٣)

كان شارع الرشيد عبارة عن امبراطورية للمقاهي (قبل ان يتحول الى مجازر الحيوان النقدية، ومخازن الرطوبة) تشكل البلدية قدمي الامبراطورية، وحسن عجمي والزهاوي حوضها، والبرلمان سرتها والبرازيلية صدرها، والبيضاء وجهها! ولايمكن ان نبدأ بوصف قدمي جسد الامبراطورية من البيضاء، لان الوصف سيصاب بالكساح! فالبيضاء منطقة رخوة، كأنها خلية نقاط على وشك ان تطير، اما البلدية فعبارة عن جدار سجن، يمكن الاتكاء عليه بثقة.

(٤)

يربط المقاهي الستة (تابو) مركزي: هو التحريم الانثوي، ان ذكورية مقاهي شارع الرشيد، ماكانت الا ان تمارس، على وفق قوانين التوازن الجنسي، الانحراف، لكن سلطة الادب في المقاهي، تلك السلطة التي تراود رواد المقاهي من غير الادباء، كانت تحد من الانحراف.

وفي عقدنا (من ١٩٥٩ إلى ١٩٦٩) لم تنتهك المرحلة الذكورية (دخول الانثى) الا مرتين! وقد حصل، في حينها، ما يكون عصرين جيولوجيين في تاريخ هذه المقاهي، وسنعرض لهذا، في مستقبل هذه الكتابة.

البلدية:

مكان الظلام المختلف

يبدأ الظلام من الخلف، في مقهى البلدية، كثيفا، ثم يفتر في الوسط، اما حلق المقهى، فمضاء اضاءة باهتة بخطوط شمسية تائهة!.

عادل كاظم، واحمد المفرجي، وسركون بولص، وحكمت الدراجي، وشريف الربيعي، وعمران القيسي وخالد يوسف وعلى مرمى منهم عميان وقراء مقام، كنا نعقد الحلقة في المنطقة المضيئة، وكنا اشخاصا مترسبين من انشطار العصر الجمهوري توا، نحاول اختبار الصلات من جديد!.

لا امتلك ذاكرة عن البلدية ولهذا سأسير بمحاذاة الذاكرة:

كان عادل كاظم (الكاتب المسرحي الاوفر حظا من الشهرة الان) وهو يشرب النارگيلة، يعدنا بعظمة قادمة! وكان سركون بولص كله اشارة الى حرب تحرير في الضلع العمودي للشعر! وحكمت الدراجي على وشك ان يؤسس حزبا! واحمد فياض المفرجي ينظر من شرفة.

وبالنظراته! حين طبع كتابه (الحركة المسرحية في العراق) آنذاك! والسيد الوحيد الذي انشق علينا، وانتقل من المنطقة المضيئة الى المنطقة الفاترة! هو غازي الاحمدي، حين كتب الوجودية مذهب انساني! والتعليق الوحيد الذي كنا نسمعه، ينتهك سلطة الاقتحام الفلسفي، للاحمدي الذي تركنا مدة نشك في معنى الادب، كان يطلقه نزار عباس! وبتعليقات نزار عباس، وظهور الادب الوجودي اعيدت (الفلسفة) وغازي الاحمدي الى الوراء! وهذا هو مكانهما الطبيعي.

كان عمران القيسي وشريف الربيعي، يملآن الحلقة بالاهتزاز! اما الوجود الاعظم (الحصيري) فلم يكن قد تشكل بعد أن كان عبارة عن سلسلة من الغارات غير المنتظمة، التي لم تكن في حينها، تثير الانتباه لكن تلك الغارات، ادخلت، بعد ذلك في سجل افعاله الغليظة، لتكوّن منه: (حيوان المقاهي) بلا منازع:

ذلك الذي يصرخ في البرازيلية، ويغير على البلدية، وينام في حسن عجمي، ويستيقظ في البرلمان، ويهدأ في الزهاوي، ويخطب

كان شارع الرشيد عبارة عن امبراطورية للمقاهي (قبل ان يتحول الى مجازر الحيوان النقدية، ومخازن الرطوبة) تشكل البلدية قدمي الامبراطورية، وحسن عجمي والزهاوي حوضها، والبرلمان سرتها والبرازيلية صدرها، والبيضاء وجهها!

في البيضاء ويقايض في التجار!.

الزهاوي

لم تطأ قدماي مقهى الزهاوي قط، وانما كان، بالنسبة لي، فضاءا بصريا، ولا ادري لمَ كان يذكرني كلما رمقته، بسيارة نقل ركاب صغيرة، يجري الحوار فيها ظهرا لوجه وليس وجها لوجه.

مقهى حسن عجمي:

مقهى الفن الفطري في مقهى حسن، يوجد، كان! مايشعرك بأنك تنتمي الى الشعب! البسط المزركشة وسماور الذهب الكاذب وسجادات الف ليلة وليلة، ونارجيلات الباشوات، والمرايا الصافية المذهبة، والغلايات المصفرة، والاعلانات التي توشك على الخروج من اطرها، وراديو القارات، وبطاريته السوداء، التي تفوقه حجما، وما تبقى من الشمس! ونظام الجرائد المؤقت (اقرأ وادفع واعد الجريدة)..

في مقهى حسن، اعترف بركن الحصيري، بعد سلسلة من الحروب الصغيرة التي دارت بينه وبين اصحاب المقهى، امس كان الركن مشمسا، وسجادته كانت حمراء، تكوم نقشها في الوسط، والارضية تلمع وتدهن.

كنا نتحلق حوله، وهو يمص دخان النارجيلة، كأعتى (معلّم) مصري!

بوجهه الاملس، وياقته السائلة، ويديه الغضتين، وكنا، وهو يخرج (لفائف) اوراقه ويقرأ، لنا وصديقي البانتومايم موسى كريدي، قد صرنا، في الطريق القويم، بين كلية الاداب في راغبة خاتون، وحلقة الادب في حسن عجمي، اننا في الطريق الى مشروعنا، الشعري، والقصصي.

بدأت ملامح الحصيري الداخلية بالبروز، كانت الكتب التي تعرف من عنواناتها، الكتب النادرة وكتب الاجزاء، وما خلع من كتب الموسوعات! تباع في هذه الزاوية بثمن نادر، لم يكن هناك قانون سعري (عرض وطلب) بل سعر اخوي، يحدد على وفق مبدأ معادل (العرق) الاني، لا اكثر ولا اقل! (اشتريت كتاب الكامل للمبرد بـ٢٥٠ فلسا، واللامنتمي بـ١٥٠ فلسا)..

من اين يحصل الحصيري على هذه الكتب؟.

سؤال سيشيخ ويموت، من غير ان يظفر بجواب!.

ومع تقدم الزمن، نمت في القسم الغربي من المقهى دائرة قمار الدومينو (بفروعها المتعددة (العدلة) والازنيف، والطيرة الخ)..

ثم اخذت الدائرة تتسع حتى لم يعد للادباء الان سوى مترين × مترين، وعلا الصدأ التراث الهائل، ورفعت، المرايا، وبيعت النارجيلات، وانتهكت عادة الدخول الى المقهى، بدخول عابرين، وكذا بدأ الماء يسيل من تحت اقدام اروع مقهى في بغداد، والان لم يعد سوى ارض، تجثم عليها قناني الغاز، وتنتشر فيها حلقات قمار منهكة! وادباء لاينتمون الى الادب، ثم حل فيه شيء يشبه الكارثة، ازيل السقف، لترميم الفندق الذي يعلوه، وهكذا كشف حسن عجمي رأسه: عن حبال ينشر عليها

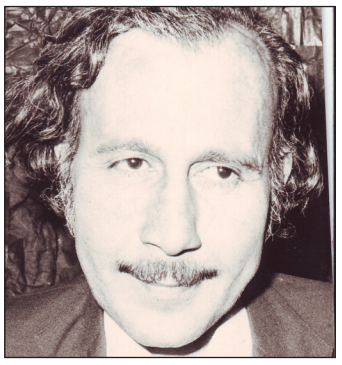
رشدي العامل

نزلاء الفندق غسيلهم!.

الانقلاب الجيولوجي الاول حصل في مقهى حسن عجمي حين دخلت امرأتان اجنبيتان، تعتمران قبعتين! وترتديان سراويل عارية! دخلتا بصحبة اديب (لا اذكره الان) لقد اصيب المقهى بالذهول وعمى الالوان، وممارسة اخلاق الصمت، كنا جميعا مقيدين: كأننا نتصافح ابدا!! حتى غادرتا.

لم يفلت من هذا الوضع البشري، الا الحصيري، وجبار نادل المقهى، كان الحصيري يختلس النظرات، لالكي ينظر الى المرأتين بل لكي تراه المرأتان!.

اما جبار فبحكم تاريخه في التنقل الموضعي، افلت من الحصار، كان وهو يشير برأسه، ويقدم لهما (الحامض) كأنه يعرض التفوق الازلي للشرق على الغرب!.

البرلمان:

كان مقهى البرلمان يشبه فراغا، كأننا نجلس فيه، وسط شارع الرشيد! الجدران من زجاج! والسقف بعيد! وعدد غريزة الشرب مخفية عن الانظار.

في هذا المقهى حفظت التقاليد الادبية حتى صبيحة انتحاره!

كانت الكنبات العشر التي تحتل الشريط الملاصق لشارع الرشيد، محرمة الا على الادباء، الاسماء كلها كانت هناك! سامي مهدي وخالد علي مصطفى، وعبدالامير الحصيري ويوسف الحيدري وعبدالرحمن مجيد الربيعي، وطراد الكبيسي، وموسى كريدي، وجليل العطية ومالك المطلبي وجليل حيدر، ورزاق ابراهيم حسن، وفي عصر البرلمان دخلت الكلمة! اعني حميد المطبعي، وعلى يديّ المطبعي ولدت ثلاثيات الادباء الشهيرة التي تقوم بتصنيف الادباء ثلاثة ثلاثة، على وفق معيار الصفات: اطول ثلاثة ادباء واقصر ثلاثة واحمق ثلاثة، واعور ثلاثة.. الخ!.

وفي البرلمان حل العصر الجيولوجي الثاني في تاريخ المقاهي حين دخلت السيدة القاصة بثينة الناصري، على الحلقة الادبية لقضية تتعلق بزوجها –آنذاك– القاص عبدالستار ناصر! وكانت بثينة تعي قانون التحريم (ذكورية المقاهي) لكنها برباط جأش اخترقت التابو، ولو كان بالامكان ضبط التلبس بالبصر! لضبطت الخمسمائة عين (سعة المقهى ٢٥٠ ذكرا) تزدحم على جسم بثينة!.

ولما خرجت بعد حوار قصير، تركت آثارا لايمكن تصنيفها!.

حسين مردان

على الرغم من ان بيت الحصيري كان مقهى حسن عجمي، كان البرلمان مكانه الاثير، وكان هو علامة البرلمان! باختصار البرلمان لايكون الا اذا كان الحصيري والعكس صحيح، وهكذا تلازما، ليس تلازم وجود فحسب، بل تلازم عدم، فما ان مات الحصيري حتى انتحر مقهى البرلمان:

البرازيلية: مقهى الترانزيت! كان يجلس فيه حسين مردان، وعبدالملك نوري، وفؤاد التكرلي، ورشدي العامل (ثم انتقل اليه نزار عباس وتوأمه، انذاك، غازي الاحمدي) . .في عصر المقاهي لم تكن البرازيلية الاّ مقهى مستوردا! في المرور به نرى غريزة الشرب، وقد روضتها التقنية، مكائن بأزرار تصنع الـ(قهوة) وبرادات ماء تدور على لوالب، واسطوانات دائرية، تنزل الـ(آيس كريم) وعمال خافتون ينحنون، وعلى شفاههم، (البزنس سمايل)! باختصار كان مقهى البرازيلية كل شيء الاّ مقهى!.

البيضاء:

مقهى البيضاء استمرار ليلي للبرلمان، وكنا في البيضاء نحاول ان نوقظ زمن التمرد فينا: الخروج على العقل، واللجوء الى الحواس لكن حواسنا، وهذا مالم نكن نعيه، اصبحت حواسا معقلنة.

كنا وسط الحانة الطويلة (ابي نواس) صار مطعما!.

كل الادب الذي يسمى بالتسمية اللانقدية: (الستيني) ولد في البرلمان اهم المشروعات الثقافية خطط لها هناك:

ادباء ناشئون وكهول متأدبون! وقارئو جرائد، كلهم يؤمون البرلمان لمشاهدتنا! نحن اشهر اسماء مكان، حدوده ١٠× ٢٠ م لكن شهرتنا تبدأ بالتناقص كلما تقدمنا خطوة وراء هذا المكان، حتى تصل بعد اقل من كيلو متر واحد، درجة الصفر.

في البرلمان كتبت اجمل قصيدة لي (الشارع والنهر) سرنا النهر والشارع كتفا الى كتف.. حتى خرجنا من بغداد، ثم عاد احدنا ومات الاخر.

البرلمان سيرتنا الذاتية جميعا!.

والان.. في المكان الذي كنا نصطبغ فيه بحمرة الشعر، يوجد دجاج محمر راكع على ركبتيه!.

كلما مررت على جامع الحيدرخانة، وجدته ينظر باتجاه رفيق كفاحه السياسي، (البرلمان) يا الهي! مقهى البرلمان لم يعد الا اتجاها!.

البرازيلية:

مقهى الترانزيت! كان يجلس فيه حسين مردان، وعبدالملك نوري، وفؤاد التكرلي، ورشدي العامل (ثم انتقل اليه نزار عباس وتوأمه، انذاك، غازي الاحمدي)..

في عصر المقاهي لم تكن البرازيلية الاّ مقهى مستوردا! في المرور به نرى غريزة الشرب، وقد روضتها التقنية، مكائن بأزرار تصنع الـ(قهوة) وبرادات ماء تدور على لوالب، واسطوانات دائرية، تنزل الـ(آيس كريم) وعمال خافتون ينحنون، وعلى شفاههم، (البزنس سمايل)! باختصار كان مقهى البرازيلية كل شيء الاّ مقهى!.

البيضاء:

مقهى البيضاء استمرار ليلي للبرلمان، وكنا في البيضاء نحاول ان نوقظ زمن التمرد فينا: الخروج على العقل، واللجوء الى الحواس لكن حواسنا، وهذا مالم نكن نعيه، اصبحت حواسا معقلنة.

كنا وسط الحانة الطويلة (ابي نواس) المتعففين الوحيدين (لا نشرب سوى الغازيات) لكن بوجودنا في الليل، وسط ابي نواس وسط الحانات السافرة، وعلى طريق الروائح المندفعة من السمك المحترق والحي، نمت عندنا عادة القمار البري، الشطرنج والنرد والدومينو! ومع تقدم الزمن اخذت البراءة تنحرف! بدأت الرهانات المالية، بيننا على نحو حذر (من عشاء! من بارد، من ربع دينار) ثم اخذت بالتصاعد (وهذا هو جوهر القمار: يبدأ باخذك على السلم ثم يقذف بك في فضائه: الذي تشع فيه نجمة الامل السرابية)..

لكن التصاعد بقي ادبيا:

(جليل العطية واحمد خلف وفاضل العزاوي، وفوزي كريم ونبيل ياسين وسامي مهدي، وحسب الشيخ جعفر وغازي العبادي) وكان (سامي مهدي) هو الذي بقي ينشط الحلقة الادبية في البيضاء ويبث فيها زمن الديمومة حضورا وحوارا، وشهدت البيضاء مرحلة (البيانات الادبية) ومولد شعر (٦٩) والذهاب الى مقر (اتحاد الادباء العراقيين) الذي بدأ بالظهور من جديد وكان هذا الذهاب بدون عودة! الامر الذي ادى الى موت البيضاء.

مقهى التجار ومقهى المعقدين:

هناك مقهيان آخران هما: مقهى (المعقدين) في الفخ الواقع بين شارع السعدون، وابي نواس، ومقهى (التجار) مقابل حلق سوق السراي، سوق التجارة بالادب.

كان المقهيان، المذكوران آنفاً اشبه باشاعتين في امبراطورية المقاهي!.

شكل مقهى المعقدين حلقتنا في المساء مدة سنة! واهم رواده مؤيد الراوي ورياض قاسم، وعبدالرحمن طهمازي، وحسين عجة وقتيبة عبدالله.. كانت تسمية المعقدين العلامة الملائمة على الصراع الادبي المفتوح، وبناء الشخصية التي تقترح الحداثة لا كنتاج نصي، بل كمناخ، للحياة.

في مقهى التجار الذي كنا ندلف اليه بين الحين والاخر كمحطة مؤقتة قبل الدخول الى عوالم سوق السراي، تتم صفقات بيع الشعر.

وقد شهدت واقعة، باع فيها (الحصيري) عشرة ابيات بدينار لمتشاعر ومن حينه عرفت، ان الرغبة في الشعر او التشاعر مرض متأصل في الانسان!.

لكن! لم نأخذ المقهيين! في يوم من الايام على محمل الجد، وما السبب الا بكونهما يقعان خارج الخط، الذي تسلكه امبراطورية المقاهي الستة: البلدية فالزهاوي فحسن فالبرلمان فالبرازيلية فالبيضاء!.

هل تكوّن عندنا ما اسميه بـ غريزة المقهى؟.

نعم! والدليل على ذلك وجودنا الادبي في حسن عجمي حتى الان، وسط قناني الغاز، التي تشير الى الانفجار، اكثر مما تشير الى الطبخ.

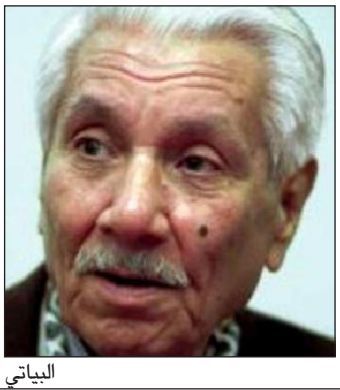
البياتي

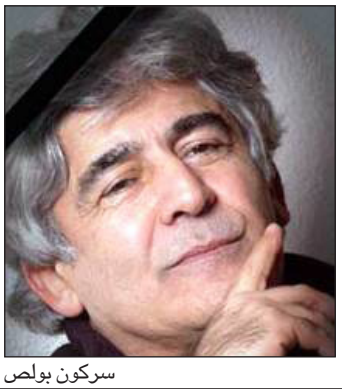
سركون بولص

فجأة قررت هجر المدرسة والمجيء الى بغداد.. كنت حينذاك في العشرين من عمري، كتلة نار وسيوف. وتلقفني شارع الرشيد..الفساتين الملونة والزجاج.. وقلت لنفسي من هذا الرصيف الرمادي ستبدأ مسيرتي الصعبة نحو قمة الجبل.
وكانت الدهشة تشدني من كل جانب حتى وصلت الى (مقهى الزهاوي) حيث يجلس محمد هادي الدفتري وخضر الطائي وعبدالرحمن البناء. وكانت حماستي الجهنمية وولعي الشديد بالمناقشة والجدل، وافكاري المتطرفة في الشعر والادب قد وضعتني تدريجيا في المكان اللائق بين اصدقائي الجدد.

المقاهي الأدبية

حسين مردان

وفي تلك الايام الرهيبة التقيت بوجه الجوع الاصفر،، فكنت لا اتناول في اليوم اكثر من وجبة واحدة. صمونة نصف سمراء مع كأس من الشربت. اما النوم فهو المشكلة الرئيسية التي كانت تشغل اكبر مساحة من ذهني،، وقد وجدت الحل اخيرا في عدم النوم، فكنت ادرع المدينة عرضا وطولا الى ان يبزغ الفجر، وعندما كان يهيمن النعاس على عيني كنت الجأ الى اقرب بستان للحصول على غفوة صغيرة. وكان عدوي الوحيد في تلك الفنادق الهوائية هو البعوض.. ولم ازل امقت هذه المخلوقات اللئيمة حتى هذه اللحظة.

وكانت الزيارات بين ادباء وشعراء المقاهي عادة طريفة تشكل نواة متفجرة للحوار والمصادمات الادبية.. وكانت جماعة مقهى (حسن العجمي) تضم البراك والجواهري وجلال الحنفي وكمال الجبوري وغيرهم.. وكنا نحن ادباء الشباب نعامل كل هؤلاء بتقدير فائق، وكانوا بدورهم يشيدون بنتاجاتنا فيساهمون بدفعنا للتجديد والابتكار، وشيئا فشيئا بدأت اصبح نقطة لتجمع ادبي جديد، فانتقلنا ومعي كل من رشيد ياسين وبلند الحيدري وزهير احمد القيسي الى (مقهى البلدية) وكان شعراء وادباء الكليات يهرعون الينا بمجرد الانتهاء من دروسهم، ومن هؤلاء بدر شاكر السياب وعبدالرزاق عبدالواحد واكرم الوتري.. فقد كانت تلك المقاهي جامعات حقيقية للادب والشعر، وكنا نعيش في جو من الصداقة الصميمية.. ومع اننا لم نكن نمارس التفكير السياسي بصورة جدية فقد كانت حياتنا سلسلة من العذابات والحرمان.. الا اننا كنا نمثل اسلوبا فريدا من ناحية تطبيق الاشتراكية.. فعلبة الدخان التي كان يملكها احدنا تطرح على الطاولة لتكون مشاعة للجميع.. وكان اكثرنا مالا هو الذي يدفع ثمن اكواب الشاي.. واحيانا كنا نفرض على ادباء دار المعلمين العالية دعوتنا الى تناول الطعام في مطعم الكلية.. وفي الواقع كنا نحسدهم كثيرا، ولطالما طلبنا منهم ان يصفوا لنا الاكلات الشهية والفواكه ليأتي بها الينا.. كذلك كنا نشترك في نظم القصائد وكتابة المقالات النقدية.

ولعل الاخ زهير احمد القيسي هو الوحيد الذي لم يزل يحتفظ بتلك المنظومات التاريخية.. وكان رشيد ياسين من عناصر الازعاج بيننا فقد كان يستغل معرفته بالنحو لاثارة بعضنا، فكنا نتهمه بالجمود وقد نذهب الى ابعد من ذلك فنسخر من سيبويه وكل فلاسفة اللغة.. وهكذا نضطره الى السكوت ثم الضحك. وبعدها تحولنا الى (مقهى الدفاع) وهنا التحق بمجموعتنا عدد من المثقفين والكتاب وعلى رأسهم المسرحي صفاء مصطفى وكمال القيسي والممثل يحيى فائق وغائب طعمة فرمان، ومصطفى الفكيكي – صاحب مجلة الراصد الان- وفي هذا المقهى بدأت محبتنا للشطرنج، حيث كان يلتقي اباطرة هذه اللعبة كالسيد عبدالرزاق المدرس والشيخ عبدالكريم الطحان الذي يعتبر مؤسس المدرسة العراقية في هذا الفن، ومن هذه الاجواء بالذات ولدت الشخصيات الحقيقية لرواية (خمسة اصوات): وفي تلك الفترة وصل جبرا ابراهيم جبرا الى العراق وانضم الى جماعة (كافيه سويس) والتي كانت ترتبط بنا ايضا ولكننا لم نكن لنهتم بهم كثيرا لما يبدو عليهم من مظاهر الترف البرجوازي ومن هؤلاء الرسام جواد سليم ونجيب المانع وعبدالملك نوري ونزار الملائكة ونزار سليم،، وكان ساطع عبدالرزاق هو حلقة الوصل بين الجماعتين، وقد استطاع بمساعدة بلند الحيدري سحبي الى ذلك المقهى الانيق، ولكن وفائي الطبقي كان يدفعني الى العودة الى اصدقائي القدماء، واخيرا قررت الانتقال الى المقر الجديد في (مقهى الصباح) في باب المعظم. فقد كان السأم من وجوه الزبائن المدمنة وتكرار المنظر الواحد من الاسباب التي تدفعنا الى الانتقال من مكان الى آخر، ولكننا قد نتحمل كل شيء اذا كانت علاقتنا بصاحب المقهى مرنة وودية، ولكل كلمة من هاتين الكلمتين اكثر من معنى واحد.. فالمرونة تعني الاستجابة لطلباتنا الكثيرة وعدم الالحاح باسترجاع الديون المتراكمة! اما بالنسبة للمودة، فنحن نريد من صاحب المقهى ان يستقبلنا ويودعنا بالترحيب والابتسام.

كانت جلساتنا الطويلة تبدأ من شروق الشمس ولا تنتهي قبل الساعة الثامنة مساء حيث نتسرب الى الحانات المجاورة لمنطقة الميدان، والذي كان قلب بغداد النابض حينذاك، والحقيقة ان المقهى كان يعتبر البيت الدائم لكل منا، وحتى الاعضاء الذين كانوا يقيمون في بغداد كانوا يتناولون الغداء معنا في اكثر الاحيان وكنا نقدر مثل هذه التضحية العظيمة، لانهم يحرمون انفسهم من اطايب الطعام من اجل البقاء بقربنا، واذا حدث وذهب احدهم لرؤية اهله فانه سرعان ما يعود لكي لاتفوته زيارة بعض الادباء لنا، فقد كان عدد الزوار يزداد يوما بعد آخر، ومن هؤلاء الدكتور محمد جواد رضا الملقب بـ(دعبل) والشاعر كاظم التميمي والناصري وصفاء الحيدري والكاتب عبدالرزاق الشيخ علي وعبدالصاحب الملائكة والناقد طالب السامرائي، ولم يكن هذا الزائر او ذاك ليأتي لمجرد رؤيتنا فقط، بل ليقرأ علينا قصيدته او قصته الجديدة، وكانت مثل هذه الاعمال الادبية تطرح من قبل صاحبها للنقد والمناقشة بكل تواضع للحصول على تزكيتها او الحكم باعدامها وقد يستمر الجدل حول قصيدة واحدة ساعات طويلة، وغالبا ما كنا نحن الذين نقرر صلاحها للنشر،، فقد كنا نسيطر عن طريق غير مباشر على الصفحات الادبية التي كانت تخصص في بعض الجرائد، حيث كان معظم المشرفين على تحرير تلك الزوايا الادبية من حاشيتنا، وكان باستطاعتنا ان نثلم شهرة اي شاعر او اديب يحاول الخروج او التمرد على مفاهيمنا الادبية والفنية، اما المجلات الادبية العالية فقد كانت هي الحلم الاوحد الذي يقوم ويقعد معنا، فعندما كان يحصل انسان ما على امتياز مجلة ادبية، كنا نركض اليه من المقاهي كافة لكي نضع مجلته ضمن نفوذنا الادبي، واذكر بهذه المناسبة ان واحدا من هؤلاء قد طلب من عبدالملك نوري قصة لاتحمل اي طابع سياسي وطلب مني قصيدة خالية من الصور الجنسية وقصيدة من عبدالوهاب البياتي بعيدة عن الاشارات الثورية، وعندما قلنا لماذا؟ اجاب وهو يتلفت حوله: لانني اخاف من الحكومة! وعندئذ صحنا بصوت واحد.. ولذا نقترح عليك ان تطبع الغلاف وحده وتكتب عليه.. بما انني اخشى السجن فقد قررت اصدار مجلتي بهذا الشكل الفريد.. وهنا كان لابد لنا من ان نمنح هذا المتأدب المسكين احد الالقاب البهلوانية التي كنا نطلقها على امثاله، وقد فاز بقلب (الطائر الخرافي)..

وبقدر ما كنا منسجمين من ناحية اتجاهاتنا الفكرية العامة كنا نختلف احيانا من حيث اساليبنا وطموحاتنا الفردية، ولعلي الوحيد الذي لم يدخل في صميم المشاحنات الادبية، التي كانت تحدث دائما بين الادباء والتي غالبا ماكانت تؤدي الى الخصام وقطع العلاقات، واشهر تلك الخصومات هي التي كانت تحدث بين السياب من جهة وعبدالوهاب البياتي وكاظم جواد من جهة اخرى، وكان كاظم هو مركز الثقل في هذه المعارك فان انضمامه الى احد الطرفين كان يعني فوز ذلك الطرف.. وكان كل من الفريقين يحاول الاستعانة بي، الا انني كنت ارفض مثل هذه المواقف واعمل على ازالة الجفاء وتقريب وجهات النظر بين الجبهتين فقد كان الصراع في حقيقته يدور حول الزعامة الشعرية! وهو عمل كنت انظر اليه من جانبي باستخفاف وبامتعاض، لاني لم اكن مؤمنا بمثل هذه السخافة، سخافة الامارة والامتياز الادبي، ومع اني كنت اعتقد ان هذه المنازعات تخلق رجة لا غنى عنها للحركة الادبية، ولكنني لم اكن اسمح بتطورها الى درجة العنف ولذلك كنت اقف ضدها باستمرار.

كان انتقالنا الى (مقهى الصباح) في بداية عام ١٩٤٨ وهو العام الذي صدر فيه ديوان بدر شاكر السياب (ازهار ذابلة) وديوان عبدالوهاب البياتي (ملائكة الشيطان) وفي نفس السنة طبع بلند الحيدري مجموعته (خفقة الطين) واصدرت نازك الملائكة كذلك ديوانها (شظايا ورماد).. وهكذا بدأت حياة المقاهي الكئيبة ترصع سماء الشعر القديمة بنجوم ذات بريق جديد، وقد قوبلت هذه المجموعات الشعرية بشيء من الحماسة من قبل القراء الشباب ومن المثقفين بصورة خاصة،، الا انها استقبلت بنوع شديد من الحذر من جانب المتزمتين من عباد الثالوث الشعري المتكون من الزهاوي والرصافي والجواهري.. في الوقت الذي كانت فيه شهرة

في المقاهي الشعبية البغدادية

سلمان هادي آل طعمة

اول ما يسترعي انتباه القارئ ان الانسان في بغداد ينتقل من مكان الى آخر مشيا على الاقدام، سعيا وراء الاشياء المطلوب شراؤها، ومن جراء التعب يلقي عصا الترحال في موضع يركن اليه ويستقر فيه، ترويحا للنفس من وعثاء الطريق، ويستأنس مع اخوانه وعشرائه في ذلك الموضع الذي يطلق عليه (المقهى) وجمعه (المقاهي) التي تنتشر في بغداد، منها ما يكون موقعها في الرصافة ومنها في الكرخ، ولكل مقهى رواد معينون، ولعل ابسط مثال على ذلك مقهى يرتاده الرياضيون ومقهى يرتاده الجنود ومقهى لهواة الطيور والمسابح حيث تباع وتشترى، فهي بمثابة سوق تجاري تباع فيه السلع على اختلاف انواعها، وبعض آخر منها يرتادها الموظفون المتقاعدون وعامة الناس.

معظم المقاهي في بغداد تكاد تكون كالمنتدى وهو مكان للمناظرة والمساجلة، تتجمع فيه الوجوه والادباء والصحفيون لتبادل الاراء والاحاديث الشعبية.

هناك تلتقي الوجوه للتحدث في شؤون الثقافة بحديث يفيض بالفرح والنشوة الغامرة، وبعض هذه المقاهي تزين جدرانها صور للمناظر والمعالم البغدادية كالازقة القديمة والغرف المطلة على الطريق التي يطلق عليها (الشناشيل) وهي من خصائص البيت البغدادي، او بعض الجوامع والمشاهد المقدسة وغير ذلك. ومما يلفت النظر في المقهى البغدادي وجود المزهريات والاواني النحاسية والسماورات والمرايا وما الى ذلك، ويطوف غلام باقداح الشاي او الشربت واخر يسقي الماء وثالث يقدم النارجيلة للمدخنين، والذي يحز في النفس ان بعض هذه المقاهي قد ازيلت معالمها وحلت محلها الحوانيت التجارية.

اذكر في سنة ١٩٥٥م اني قصدت (مقهى الصالحية) الواقع بجوار دار الاذاعة والتلفزيون اذ كان معنا الشاعر الكبير بدر شاكر السياب وخضر الولي وصلاح نيازي، وفي المقهى كان حديث الشعر والادب، وجرت مناقشات حادة ومتشعبة، كما حضرت في (مقهى الامين) المطل على شارع الامين وذلك في سنة ١٩٥٦م كنت انا والسياب والشاعر كاظم جواد ويوسف عز الدين وخضر الولي حيث دارت احاديث طويلة وشائقة، فيزدحم المقهى لاسيما اذا كان يوم الجمعة، وهو يوم العطلة العامة، وغالب اصحاب الاعمال يوقفون اعمالهم ويقصدون المقهى، كما كنت ارتاد في اواسط الستينيات (مقهى شط العرب) المجاور لـ(اورزدي باك) بشارع الرشيد المطل على نهر دجلة، حيث يتواجد عشرات الطلاب الجامعيين تراهم منهمكين في الحفظ والدرس لاسيما ايام الامتحانات فضلا عن ذلك فقد كنت ارتاد المقاهي المطلة على نهر دجلة صوب الاعظمية.

ولعل اشهر المقاهي الشعبية البغدادية التي كنت ارتادها في اواخر الستينيات واوائل السبعينيات هو (مقهى البرلمان) الذي يقع في شارع الرشيد مقابل جامع الحيدرخانة، وهذا المقهى عامر بالجلساء، يحج اليه الادباء وبعض الشباب الناهض، وهو محط الامال ومطمح الانظار، فهو عامر بالشعراء المجيدين والكتاب البارعين يتناقلون الاخبار ويتبادلون الاحاديث الشائقة، كنت اسمع الشعر الرقيق الذي يمتاز بطابع الدعابة المليحة والنكتة البارعة، كان يرتاده مساء الشيخ علي الخاقاني صاحب مكتبة دار البيان وعبدالحميد التحافي صاحب جريدة (الوطن) ويونس بحري وفؤاد عباس وعبدالقادر رشيد الناصري وخضر عباس الصالحي وعبدالامير الحصيري وعبدالمهدي الفائق والسيد ضياء شكارة الانتقال الكبير الى (مقهى البرازيلية)..

لقد كان عهد (مقهى البرازيلية) هو العهد الذهبي في حياتنا الادبية، فقد اصبح لكل منا شخصيته الادبية الخاصة، واذا كانت بعض الوجوه قد اختفت نهائيا لعدم قدرتها على المواصلة فقد ظهرت وجوه اخرى جديدة ذات سمات ملائمة كالشاعر رشدي العامل والقاص نزار عباس ومحمد روزنامجي والصحفي الكبير عبدالمجيد الونداوي، فهناك وخلف الواجهة الزجاجية العريضة وحول منضدة من اعواد الخيزران كان يجلس الفرسان الاربعة انا وعبدالوهاب البياتي وكاظم جواد وعبدالملك نوري حيث قد اصبحنا نقطة الارتكاز لكافة اطراف الحركة الادبية في العراق ومع اننا كنا نختلف من ناحية اتجاهنا الادبي، الا اننا كنا نشكل وحدة متراصة ضد كل بوادر الشعوذة ومحاولات الارتداد، غير ان حدة النقاش قد اخذت تهفت باستمرار حتى خيل الي اننا سنتحول الى نوع من الدمى، لذا كنت انتظر مجيء الليل بشوق لايوصف حيث التقي اصدقائي من الادباء الذين فضلوا البقاء في مقاهينا القديمة، فقد كان معظمهم يأتون الي بعد الساعة الثامنة مساء في حانة (بلقيس) لنستعيد ذكريات ايامنا السابقة، وفي تلك الفترة انضم الينا كل من سعدي يوسف ومحمود الخطيب وماجد العامل، وكان يحضر للبرازيلية احيانا بعض المفكرين المعروفين كالدكتور فيصل السامر والاستاذ ابراهيم كبة والدكتور علي الوردي، وغيرهم، وفي مقهى البرازيلية بالذات نشأت كافة التيارات والافكار التجديدية في الشعر والادب، وفيها ايضا ولدت فكرة تأسيس اتحاد الادباء العراقيين، ولقد كان لنشاطي الشخصي اثره الفعال في اتخاذ بعض الخطوات المهمة من اجل انجاح هذا المشروع الكبير الذي كان مجرد التفكير فيه يعتبر تحديا مباشرا للسلطة القائمة حينذاك، وكانت اهم الاجتماعات شبه السرية التي وضعت فيها القرارات الحاسمة بالنسبة للهيأة التأسيسية الاجتماع الذي عقد في دار الاستاذ خالد الشواف، ولكن الحكومة التي كانت تتعقب خطوات كل شاعر واديب قد شعرت بخطورة مثل هذا التجمع الادبي فأوعزت لعدد من مرتزقة الادب بتقديم طلب مشابه، وقد اجيز الطلب فعلا.. وهنا كان لابد من معاقبة ذلك الشاعر المجنون والانتقام منه، ففي سنة ١٩٥٢ القي علي القبض من قبل البوليس السري، وبعد توقيف طويل في معتقل ابي غريب قدمت الى المجلس العرفي العسكري وحكم علي بالسجن لمدة سنة، وفي سجن الكوت الرهيب بدأ التحول الكبير في مجرى حياته الادبية فقد اقسمت مع نفسي على السير في خدمة الشعب والعمل على قلب ذلك النظام الذي يستل شوق الانسان للحرية بالسجن والحراب ولما عدت الى البرازيلية كان الفرسان الثلاثة كعهدي بهم يجلسون خلف الواجهة الزجاجية ويتحدثون عن نفس الحلم المشترك، وكانوا قد فصلوا من وظائفهم فصاروا يفكرون بالهرب بصورة جدية وقد حقق ذلك كل من عبدالوهاب البياتي، وكاظم جواد ولم يبق معي غير عبدالملك نوري، ولم اكن املك من الوقت مايكفي لعبادة مقهى البرازيلية لانني كنت اعمل كمحرر في جريدة الاهالي، ولكني كنت كثيرا ما افر من الجريدة الى المقهى، فقد كان الجلوس وراء الزجاج خلف منضدة الخيزران قد وصل الى درجة الادمان.

مجلة الف باء اذار 1969

الادباري الحازم الذي عرف بدقة الملاحظة وسداد الرأي والاخلاص فيما يعمل فضلا عن مناصرته الفقراء والمعوزين بهمة لاتعرف الكلال والملال، لكن المؤسف حقا ان هذا المقهى ازيلت معالمه، واصبح حاليا مجموعة دكاكين، اما (مقهى الشابندر) فكان صاحبه الحاج محمد الخشالي، يقع قبالة سوق السراي في شارع المتنبي، وكان صاحبه يسرع بتقديم قطرات من القهوة السادة في الفنجان تحية للقدوم، ولابد ان يقدمها صاحب المقهى نفسه زيادة في الترحيب ويكرر ذلك بين آونة واخرى، وابرز رواد هذا المقهى المرحوم الحاج ابراهيم ادهم الزهاوي الشاعر الطائر الصيت وهو لطيف المعشر كريم الاخلاق، ومحمود العبطة الشخصية القانونية المحبوبة، جمع الى اخلاقه السامية وهدوئه المعتاد وتفكيره البعيد، حدة الذهن والذكاء ومداعبة الاصدقاء، والدكتور باقر سماكة الشاعر الغزلي الرقيق وحكمة فرج البدري وعطا رفعة وامثالهم كثير، و(مقهى الزهاوي) الواقع في شارع الرشيد قرب الميدان، ويعد من اهم المقاهي الشعبية الثقافية لكون جميع رواده من المثقفين والادباء، يرتاده مكي عزيز ومحمد حسين فرج الله والمحامي انور عبدالحميد السامرائي وعبدالخالق فريد شاعر الحب والغزل وكمال نصرة وكمال عثمان ومحمد شكري العزاوي وعبدالرزاق السامرائي والصحفي القدير عبدالقادر البراك صاحب جريدتي (البلد) و(الايام) الذي عرف بالدأب والجد والكتابات المتميزة ولاسيما ما يتعلق منها بتاريخ العراق الحديث، وهو مسموع الكلمة، اشتهر بين الصحفيين باستقامته وحرصه وقيامه بالواجبات الانسانية، خدم الصحافة العراقية واثرى مسيرتها الصاعدة، ومن بين المقاهي الشعبية الاخر المعروفة (مقهى الخفافين) الذي يقع بالقرب من المدرسة المستنصرية، يقصده في ايام الجمع عبدالحميد الرشودي وهو في طليعة الباحثين والدارسين للتراث، وقد اصدر كتبا عن (الزهاوي) و(الرصافي) وهو موضع اهتمام ثلة من الادباء الذين يجلسون في ركن من المقهى، فيتحدثون عن الحوادث المروية والاخبار اليومية، ومنهم مهدي شاكر العبيدي وهو اديب فاضل له اسهامات ادبية موفقة نشرها في الصحف البغدادية.

وكل فرد في هذه الثلة معروف بالظرف والاريحية، مجبول بالدعابة وحب النكتة المستملحة والجواب السريع الذي ينطوي على بديعة وذكاء فطري و(مقهى عارف آغا) المطل على شارع الرشيد مقابل مقهى الزهاوي، كان يجلس فيه الشاعر عبدالامير الحصيري، يحف به نفر من الشباب، كما يرتاده بعض الموظفين الذين اعتمروا السدارة الوطنية المصنوعة من (الجبن) و(مقهى حسن العجمي) الذي يقع في شارع الرشيد المجاور لمدرسة (الشرافة) يرتاده محمود العبطة وخضر الطائي وعيسى عبدالقادر وشفيق القيماقجي وغيرهم، وكنت ارى شخصا يحتل الصدارة بين المشخوطين يتردد على المقهى، مرتديا دشداشة فيلذ لبعض الجالسين ان يدعوه لمجالسته، واحتساء فنجان القهوى او استكان الشاي معه، ليسمعه بعض النكات والاقاويل التي لاتخلو من متعة فيتلذذ بها فتتعالى الضحكات.

الحصيري زبون دائم لمقاهي بغداد

عندما عقدت المفاوضات بين الجانبين كان القاص عبدالملك نوري هو ممثلنا فيها، ، ولكنهم لم يحترموا ما وعدوا به من حرية الانتخاب . . فعمدت الى مهاجمتهم في اثناء المؤتمر، وقد حملتني اصوات اصدقائي القدماء من ادباء وشعراء المقاهي الى كرسي الهيئة الادارية . .

البلدية . . مقهى من أيام الزمن الجميل

صاحب الشاهر

ماذا يهمنا من بناية متداعية تلم اعطاف ماضيها في احدى زوايا ساحة الميدان.. وقد مسح الغبار ذيله على زجاج شبابيكها المتعبة.. ورسمت امانة العاصمة على بابها شارة (التفليش)..

ما الذي يهمنا حين نرسل ابصارنا داخل فراغها الموحش وقد طردت رياح اليوم كل معالم امسها ولم تبق لنا غير نضارة الذكريات..

مقهى البلدية.. ليست بناية قديمة كالاخريات.. نفرح لتهديمها كي تنهض مكانها معالم جديدة.. لبغداد جديدة..

هذه المساحة التي تنفست هواءها طوال نصف قرن صور طيبة ولحظات رائعة مازالت تعيش في ذاكرة مثقفيها الذين ادركو ايامها الملونة ابان فترات الاختناق.. وضيق النفس..

اولئك الذين راحوا عرفوها كأول مسرح تحركت عليه اكثر من ظاهرة فنية واكثر من نشاط جميل.. عرفوها مع اول مطربات العراق.. منيرة الهوزوز ثم سميرة دجلة.. سليمة مراد.. جميلة دنكر وبدرية بنت السواس باسم (ملهى الف ليلة وليلة).. كما عرفوها مع فرق بغداد المسرحية وهي تقدم فنانيها عناية الله الخيالي.. عبدالله العزاوي.. هادي علي والصحافي محمود شوكت صاحب جريدة الثبات.. ثم شاهدها وهي تتآكل في حريق لفها في الثلاثينيات ليصار الى ترميمها من جديد باسم (ملهى الاوبرا العراقية) وتظل حتى منتصف الاربعينيات حيث تتغير خارطة ساحة الميدان تلغى ملاهيها.. وتبدأ قصة مقهى البلدية.. الوليد الجديد الذي تربع على هذا المكان منذ ذلك الوقت..

يتذكرون المقهى.. يتذكرون شبابهم هؤلاء المثقفون الذين يعيشون بيننا الان.. يتذكرون المقهى فيتذكرون شبابهم منهم من جاءها في اواخر الخمسينيات،، ومنهم من جاءها في الستينيات كملاذ متسع شهد فورة نشاطهم.. القراءة.. الكتابة.. الانطلاق بالتظاهرات الوطنية.. والخصومة احيانا الى حد استعمال الكراسي كسلاح ابيض.. لقد منت البلدية بدفئها على اكثر من اديب او فنان هرع اليها بعد ان قذفت به قسوة الجو السياسي الى الشارع.. وهنا تعاقبت مجاميع طيبة من جيل عبدالقادر رشيد الناصري.. عبدالخالق فريد.. محمود العبطة.. الى الجيل الذي جاء بعدهم.. وآخرون ممن احتفظوا في رؤوسهم بأكثر من طريفة واكثر من موضوع كانت فريسة (دسمة) للنقاش.. وهم يتأملون قاسم صاحب المقهى بسدارته التي اوحت للقاص عبدالرحمن الربيعي بموضوع قصصي جميل.. ويتأملون صانعه المزمن خضير.. وما بينهما من مسافة..

منيرة الهوزوز

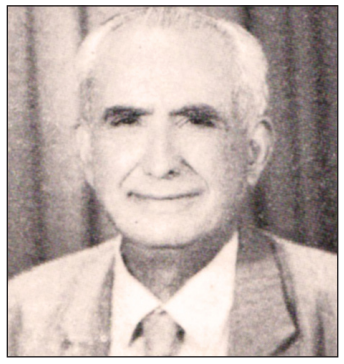
محمود العبطة

فصولا من كتبي عن السياب ومحمود السيد والفلكلور البغدادي.. كما حررت مسودات تلك الكتب قبل دفعها للمطبعة القريبة.. فكيف لاتبقى عيوني مشدودة لها..؟

من رقص الهوائم.. الى عمامة الطيار

ويقول العبطة: بعيدا عن الضوضاء كنا نتحدث عما نشرنا او قرأنا ونحن نصغي الى اغنية الجندول او الى موسيقى رقص الهوائم حيث كان المقهى يملك ثروة هائلة من الاسطوانات ولها موظف خاص يذيع على

سليمة مراد

الفنوغراف بعد تقديم اسم الاغنية والقطعة الموسيقية من على ورقة خاصة لذلك.. اذكر ان في الجانب الاخر من مجموعتنا انا والسياب وحازم سعيد ومحمد روزنامجي وحقي الشبلي وغيرهم.. كان يجلس المرحوم الحافظ مهدي مع بطانته واشهرهم احمد شعبان بجراويته البغدادية البديعة.. وعلى بعد منهم يجلس ارباب الموسيقى الشعبية وقد علقوا الابواق والطبول فوق رؤوسهم بشكل مضحك.. وبعد ان انتقل المقهى الى مكان (ملهى الاوبرا) لم تنقطع ارجلنا عنه حيث اجتاحه في هذه الفترة الشباب الجديد.. ولم يبق من علامات البلدية القديمة الا السيد عبدالستار الطيار بعمامته ونرجيلته المعهودة..

من هنا.. انطلقت التظاهرات

احمد فياض المفرجي يتحدث عن مشاهد من ايامه مع المقهى.. تلك الايام المليئة بالطرافة والجد.. الخصومة والاصدقاء..

يقول: انني لا يمكن ان انسى ذلك اليوم الذي اصطخبت فيه المقهى وضجت بمثقفيها.. وشبابها الذين اندفعوا للالتحام بالتظاهرة الوطنية التي خرجت تأييدا لثورة مصر عام ١٩٥٢.. كما كانت احتجاجا متحمسا ضد النظام الملكي المستبد.. كما لايمكن ان انسى الشرطة الملكية الذين عودونا على احتلال المقاعد الامامية من المقهى وهم يحدقون في اوجه حلقات الشباب المثقف تصيدا لاجتماعات القوى الوطنية في المقهى.. والتظاهرة كانت لهم رزقا رائعا وجدوه في قمع الشباب المتظاهرين..

احسن مكان للتأليف.. والصفعة الودية

الاستاذ المفرجي له ذكريات طريفة في (البلدية) ذكر لنا بعضا منها حين قال: كنا نتمتع بجو رائع في المقهى.. وفي عام ١٩٥٧ دفعت بكتابي (المرأة في الشعر العراقي) للطبع.. وبعد اتمام مسوداته اقترح عليّ صاحب المطبعة ان اضيف فصلا عن المرأة في شعر حسين مردان فأسرعت الى (البلدية) وهناك حررت الفصل كاملا في جلسة واحدة، والحقته بالكتاب في نفس اليوم.. وبعد صدور الكتاب اطرى معظم من قرأوه على هذا الفصل الذي حررته بفضل اجواء المقهى..

وفي عام ١٩٦٥ اصدرت كتابي عن الحركة المسرحية وبعد صدوره باسبوع تخاصمت مع احد الادباء في المقهى.. فلم يجد هذا ما يصفعني به سوى نسخة من كتابي اشتراها لهذا الغرض من بائع مجاور.. وتقبلت انا هذه الصفعة بارتياح لانها ساعدت على تصريف نسخة من كتابي..

حلقات الادب.. ذكريات عزيزة

خالد الحلي هو الاخر له ايامه الحبيبة التي يقول عنها:

تتداعى في ذهني بعض الاشياء.. الجديد لا بد ان يحل محل القديم.. ولابد لهذه البناية العتيقة المعتقة ان تطمر!! لكن.. عندما عرفت انها توشك على الزوال النهائي كمقهى تذكرت بالحاح تلك الايام الحبيبة.. حيث فيها بدأت علاقتي ببغداد عام ١٩٦٤.. وهنا تعرفت الى الكثير من الادباء والفنانين يوم كان جو البلد مختنقا تحت وطأة النظام العارفي وكنت جديدا على حياة بغداد.. اتذكر وجه الشاعر الراحل عبدالامير الموسوي وهو يتردد على المقهى خلال ايامه المرهقة.. ان حلقات الادب ذكرياتي العزيزة عن (البلدية)..

هكذا يتحدث هؤلاء عن متنفسهم الذي تركوه ليشغلوا مواقع حيوية تسهم في بناء مستقبل ثقافتنا. بعد انفراج واقعنا ورحيل سحبه الداكنة.. ولكن المقهى يبقى في خواطرهم طيفا عزيزا من ذكريات حميمة..

يمكن ان يهدم مقهى البلدية.. لكن لايمكن ان تنسى جلساته التي تحتفظ بطراوتها وهي تنمو داخل جو من الدخان بدأ من العهد الملكي وانتهى بانتهاء النظام العارفي..

يمكن لامانة العاصمة ان تتصور مقهى البلدية وهي تتهدم.. لكن هؤلاء يظلون مثل غرسات تنفست هواءها قديما.. وهي الآن تهتز بجمال كلما حركتها رياح الذكريات..

مجلة الاذاعة والتلفزيون 1975

عرفوها كأول مسرح تحركت عليه اكثر من ظاهرة فنية واكثر من نشاط جميل . . عرفوها مع اول مطربات العراق . . منيرة الهوزوز ثم سميرة دجلة . . سليمة مراد . . جميلة دنكر وبدرية بنت السواس باسم (ملهى الف ليلة وليلة) . .

يقعُ مقهى البيروتي.. على الضفة اليمنى من نهر دجلة في جانب الكرخ، جنوبي جسر الشهداء، وقد نسب هذا المقهى الى صاحبه الحاج محمد البيروتي. الذي نزح من بيروت ابان العهد العثماني واتخذ الحاج جانب الكرخ مستقرا ومقاما له منذ سنة ١٨٩٧م وظل يدير هذا المقهى والذي صار منتدى لوجوه بغداد وعلمائها وشعرائها من كل حدب وصوب وقد توفي الحاج محمد البيروتي سنة ١٩١٦.

مقهى البيروتي والملا عبود الكرخي

عبد الكريم الوائلي

مخلفا ابنه ابراهيم وعبدالفتاح وقد احترفا حرفة ابيهم.

وكان يزور هذا المقهى الشاعر الفقيه محمد سعيد الحبوبي، كان مقهى البيروتي من اكبر مقاهي بغداد.

حيث يرتاد هذا المقهى كبار التجار ورؤساء العشائر والاعيان ورجال الدين. وكان الشاعر المعروف الملا عبود الكرخي من الرواد الدائمين لهذا المقهى. وخلال الاجتماعات التي شهدها المقهى.

حيث كانت تبحث القضايا العامة، وكم من وقفة سياسية قد اتخذت ضد سلطات ذلك العهد صدرت من روادها التي لم يكن زوارها من الكرخيين وحدهم، بل ان الكثير من اعلام الرصافة كانوا يترددون عليها يوميا. فضلا عن زوار بغداد من المحافظات التي كانت تنطلق وسائل النقل اليها من جانب الكرخ.

حيث وصف المرحوم جعفر الخليلي وصفا طريفا في كتابه "هكذا عرفتهم" قائلا "اكبر مقاهي بغداد على الاطلاق، وكان يقوم على الجسر من جانب الكرخ ويمتد بموازاة نهر دجلة، وخلفه يمتد سوق هو الطريق الوحيد الذي يسلك منه السالك الى القصور القائمة على نهر دجلة حتى السفارة البريطانية، ولم يبق اليوم اثر لمقهى البيروتي ولا للسوق وانما تقوم عليها بنايات وساحة لوقوف السيارات. وكان مقهى البيروتي يعتبر بمثابة نادٍ عام.

وملتقى لجميع التجار ومضرب موعد لجميع الذين يقدمون من خارج بغداد ومن جنوب العراق خاصة وكانوا يحملون معهم الكثير من الرسائل ويسلمونها الى ابراهيم البيروتي وهو بدوره يوزعها بين اصحابها من رواد المقهى. اما ما يتبقى من الرسائل فيصفها فوق "رف خاص بالرسائل" اوفوق صندوق الرسائل ليتسلمها صاحبها حين يمر بمدخل المقهى. كان التختان المتقابلان في مدخل المقهى مخصصين للشعراء والادباء امثال الملا عبود الكرخي والحاج مجيد مكية، ومحمد سعيد التكريتي وكاظم الفهداوي وشكر الملا حسين وتوفيق الخانجي عم الاستاذ يوسف العاني ومحمود الحاج جواد الشكرجي وفائق التكريتي وداود الوتار. ولم تكن في عهد محمد البيروتي العاب الورق والدومينو والنرد والزار الصينية داخل المقهى وقد دخلت بعد وفاته .

وتولى ابراهيم ادارته فانقلب جو المقهى من الهدوء والراحة الى صخب وضجيج مما اضطر عدد من روادها الى تركها والجلوس في مقهى اخر، وكان اول التاركين الى هذه المقهى هو المرحوم فائق التكريتي حيث جاء في قصيدة الشاعر الملا عبود الكرخي المنظومة عام ١٩٢٤م:

ترك "كهوة البيروتي"
الشهم "فايق التكريتي"
تركها، حق معاه قمار
بيها لعب ليل نهار
كال "الصاي" كال "الزار"
كال انطيني "صينيتي"
معاك الحق اخي "فايق"
على اقرانكم "فايق"
انا مثلك اخي ذايق
مرار، وانهزم نيتي
تسمع فقط حس صايات
تترادم على الميزات
وهرجه وضجه وللفوات
الاحسن اكعد بيتي

ولابد لنا ونحن نؤرخ لهذا المقهى الشهيرة ان نقول انها كانت في الفترة التي سبقت انتشار الصحف سوقا ادبية ينتابها كل من لديه الرغبة في القاء كلمة او قصيدة في المناسبات الدينية والوطنية وغيرها. وفي تلك الايام ذر قرن المهاجاة العنيفة بين الشاعر الكرخي واعوانه وشاعر من جانب الكرخ وشلته.

وكان لكل منهما رواية يتولى قراءة ما يستجد من شعره ضد الشاعر الخصم فكان فاضل الحاج عباس وهو شاعر شاب من "فحامة الكرخ" رواية الكرخي وهو البادئ بالتحرش بقصيدة من وزن "البند" اولها "الا يالعنة الله على الكرخي عبود" فاجابه الشاعر الكرخي بعشر قصائد اخزته الى يوم الدين حيث يقول فيها:

راوية عنده ها لمخنث "اسد"
اصفهاني عجمي طرطرلي هدد
كل نهاره يكوم يكعد بالبلد
صاحبه ينطيه شتمي بتسكره

ومما يجدر ذكره انه ممن هجاه الكرخي مع اسد العجمي في قصيدة تعد من روائع منظوماته الهجائية حيث يقول:

لاكتب اعلانات وانشر بالبلد
عن عمل "سلمان" واللوتي "اسد"
(اسد) لوتي من حثالة اصفهان
وصاحبه "سلمان ابن البهلوان"
كلا وجيه وحرامية من زمان
مثلهم بالبشر ما يوجد ابد!؟

الحديث يطول ويطول على هذا المقهى ولكننا بما اسلفناه من لمحات وذكريات تراثية بغدادية والى مقهى تراثي اخر.

تولى ابراهيم ادارته فانقلب جو المقهى من الهدوء والراحة الى صخب وضجيج مما اضطر عدد من روادها الى تركها والجلوس في مقهى اخر، وكان اول التاركين الى هذه المقهى هو المرحوم فائق التكريتي .

مقهى حسن عجمي

كبرياؤه من كبرياء رواده . . وزمانه من زمانهم

وارد بدر السالم

يرتبط مقهى حسن عجمي اسما ومكانا، بعلاقة تماس معروفة مع الادباء والمثقفين لا بوصفه تاريخا مجردا او مكانا وحسب، انما بوصفه علاقة متينة الخصوصية بما هو عليه من تبدلات وانتقالات خارجية وداخلية لانه مركز اثير يدور الكثيرون فيه وحوله من اجل اشياء منظورة وربما غير منظورة وليس اقلها الوقوف في اللقطة اليومية المتكررة كأدباء.. وهو هاجس لابد من الاقرار بسطوته وهو يشد ادباء الخطوات الاولى بخجل اول الامر ومن ثم بثقة تظل مرهونة بالزمن والتجربة والموهبة فقد تبارك هذا المقهى حصرا، دون غيره من مقاهي العاصمة تلك الخطوات القلقة ويمنحها (اجازة) العبور الى احلام اليقظة المعلنة وغير المعلنة.

أجيال عديدة عاصرت المقهى.. وجوه غابت وأخرى باقية!
رواد تاريخيون.. وآخرون عابرون
شرائح متنوعة تأتي إليها هرباً من الضجر

هذه الروابط المعروفة، بين المقهى وادبائها صارت مع الزمن والاحداث المتتالية رابطة منسوجة بحضور مستمر، معلن بين الطرفين، وقد لاتنفصل ذات يوم الا بانفصال المكان عن مرتاديه لسبب ضاغط، وفي الارجح، ربما سيكون سببا تجاريا، وبالتالي علينا ان نتصور شكل الطلاق القسري بين المقهى والادباء والتشتت الناجم حالة واقعة ومن ثم البحث المجهد عن مكان بديل ولابد من ان يكون مقهى كأرض بكر تتقبل زراعة تاريخ آخر على انقاض تاريخ سابق، قد لايكتب له النجاح، وهذا مؤكد الى حد ما، بسبب الاغتراب، المزدوج الذي سيحل بالطرفين المقهى والادباء.. على ان هذا الافتراض سيظل متوقعا وقد لايحدث تماما لتبقى متوالية التعاقب الجيلي قائمة هي الاخرى وليبقى المكان- المقهى محورا حاسما بمركزيته في الشد والجذب والاقصاء فيما بعد..

شكل الصراع سوف يكون مستترا.. وقد كان ذلك بين المكان وشاغليه.. وهو صراع متبادل تحركه نزوات آنية فرضها ظرف طارئ، لكن سرعان ما تعود الاشياء الى سابق وضعها مصممة على أسس تبادل المنفعة، وفرة المكان / ووفرة المكين؟/ وتبادل الخطابات والشفرات حرصا على سلامة التواصل والحضور/ اعانة شاغلي المكان لديمومة اللحظات الغامضة/ وتعويق الزمن في ايقاف المكان – المقهى من قبل مستغلي المكان ورواده الذين انقذفوا من التاريخ القريب او الذين ولدوا تحت اضواء النيونات الملبدة بالغبار الى ما شاء الزمن ان تتلبد؟.

هكذا هي (القيمة) القديمة بين الاثنين في لعبة الشد النفسي والتاريخي، فبعد ان أغلق مقهى (البرازيلية) لسبب ما وترك مقهى (البرلمان) وظيفته ليتحول الى مطعم للكباب! اضطر (الجميع) الى الهجرة الى مقهى حسن عجمي وهي هجرة مؤقتة نفسيا الا انها باتت اقامة دائمة لا تعتورها الشكوك ولكن تفترعها الظروف القاسية منذ عشرين سنة على وجه التحديد.

أجيال أدبية

الاتساع المقصود هو في القيمة الزمانية – المكانية للمقهى نتيجة ولادات اجيال جديدة وظهورها على مسرح المقهى بشكل يدعو الى الاعجاب والتأمل والاستفهام ايضا، مما يعزز المكان – المقهى لاحلام اليقظة المشروعة لدى الكثيرين الذين يتزودون هنا وعلى مر الايام، باحلام اكثر واقعية وصراحة، ولكن بعد زمن لايطول هذه المرة وما الانتكاسات او الانكسارات (كذا) التي تصيب بعضهم وبخاصة القادمين من المحافظات العراقية القريبة من حزام العاصمة او حتى البعيدة عنها، ماهي الا جزء صغير من الواقع او احلام الواقع سريعة الزوال امام صراحة المقهى وهي تتحول من مكان الى زمان بوصفها مركزا جاذبا واردا ايضا (المقهى عاصمة اذن)! على ان الكثيرين ايضا قادرون على التضحيات بشكل مستمر ويتآزرون بالحاح، لكسر شوكة المقهى، متناسين شؤونا مهمة في الحياة واقفين بعناد، منشغلين بحضورهم المزدوج او الحقيقي او الهامشي لغرض توسيع قاعدة المشاركة ولو كره الاخرون؟ وبذلك انشغلت تخوت جديدة باسماء جديدة في المقهى وقد تكرر هذا الامر دائما وسيتكرر ما دام هذا المركز له خاصية الجذب المستمر ومادام هناك آخرون يتعاقبون على وفق النظام الوراثي المعروف، ولكن على طريقة الوصول الى ماهو مشاع، فالمقهى هو (ام) الجميع من حيث هي (رحم) له امكانية ضم الجميع بلا استثناء، دون ان تصبح ابا يوزع اهتماماته بين الابناء العاقين والمشاكسين والعقلاء بصورة متساوية ودون تفضيل هذا الابن على ذاك، فهذا لن يحصل ابدا، لان المقهى غير قادر على تبني نظام الابوة الصارمة فذلك من شأنه ان يخلق فوضى ليس من اليسير كبحها، بل يحولها الى مقهى دون امتيازات اخذت تسعى اليها عبر التجربة الطويلة، وانشأت لها طقسا لا واعيا في الارجح في مكوناتها السرية – المادية.

اما الانغلاق المشار اليه عرضا فهو يقتضي النظر الى طبيعة الرواد المواظبين منهم او الطارئين الذين قد يكتسبون حضورا اكثر من الرواد (التاريخيين) المتوالدين عبر الظروف والحقب والاجيال فهنا ستكون الدورة معكوسة، اذا تحقق ذلك الاكتساب ولن يحقق المقهى في رواده المتعاقبين عبر المواهب واستنساخها اي اكتفاء ذاتي بل سوف يحتاج دائما الى عابري سبيل او ممتقعين وربما الى اصناف اخرى من البشر افرزهم الواقع الرازح تحت ثقل الحصار؟.

حضور عابر

ان طرفي الاتساع والانغلاق مرهونان ليس بالزمن وحده وتغير الظروف فقد يكون هذا تحصيل حاصل لكنهما مرهونان بالالتصاق القصدي في جلدة المقهى او الانسلاخ عن رحمها والاكتفاء بالحضور العابر على طريقة تزجية الوقت او احصاء الهموم البيتية، وهذا ما تستوعبه المقاهي كلها، وهذا ايضا سوف يسلب مقهانا فضيلة الزمان والمكان وفضائل اخرى لان الهدف الكامن هو الا يتحول مقهى حسن عجمي الى مكان مجرد والا فالامكنة مرمية في كل مكان؟؟ وان لقاءات التحية يمكن ان تتم عبر الهاتف بشكل مستمر دون انقطاع والولادات الادبية ستبحث عن (رحم آخر) وتجمل له سماته واركانه وتخلق له مزايا نادرة وتزور له تاريخا فاضلا؟.

وجد المقهى (حسن عجمي) بوجود شارع الرشيد، فهل نستطيع ان نتصور العكس؟ لا اعتقد ذلك فالمقهى ليس له علامة فارقة في شارع الرشيد وليس له علامة فارقة في ذاكرة مسافر او عابر او طالب جامعي قاده الواجب الدراسي للبحث عن مصادره في شارع المتنبي.

وجد المقهى بوجود شارع الرشيد ولايجوز افتراض العكس.. ان ذاكرة (حسن عجمي) من ذاكرة (شارع الرشيد) وارجو الا يكون هذا فرضا متعسفا ان ميزة هذا المقهى هي في انفصالنا التدريجي عن شارع الرشيد الذي فقد جزءا كبيرا من ملامحه وذاكرته، وهو انفصال قررته ظروف متعاقبة، لتستقل باطارها وتجتذب اليها ذاكرة اجيال اضيفت مكتنزة بما هي حياتي وحيوي، تلك الاجيال التي قدمت مكتنفة بالمشاريع والهواجي واحلام اليقظة المستمرة، ولعلنا سنقرر ان الانفصال من ذاكرة شارع الرشيد ليس مقصودا بذاته، كما ليس مخططا له من قبيل اي طرف يعنيه هذا المكان او لا يعنيه.. على افتراض ان كل ذاكرة تؤسس علاقاتها الجدية بما هو مضاف اليه من معرفة مقرونة بالخبرة والتجربة بعيدا عن (استعمار) الماضي ومحدداته وذاكرته.

تطلق تسمية (مقهى الادباء جوازا على مقهى حسن عجمي) وهي تسمية محلية اتفق عليها دون اتفاق علني، ولكنه اتفاق قائم، ولم تطلق هذه التسمية بشروط يمكن قراءتها ولن تكون ثمة شروط لمستقبل هذا المقهى على اساس هذه التسمية او غيرها مما ينتجه ظرف قادم، ويتضح من التسمية في حقيقة الحال اطراد متحصل من الرواد كان وراء ذاك العنوان العريض، فتعاقب الظروف القاسية وتخاطف السنوات وولادات اجيال قذفها الواقع المحتدم الى واجهة الحياة بشكل قيصري في بعض الاحيان، تم التركيز على التسمية المذكورة لا من قبل (المسمى) هذه المرة انما من المقيمين على شؤون المقهى، حصرا فهل هذا وعي مكتسب؟ ان تتم المسميات عن معرفة ضرورية لما هو مسمى؟.

لا اظن ذلك ولا استطيع قبول هذا الاحتمال بشكل نهائي لان معرفتي بـ(ادارة) هذا المقهى لايصل اليها الشك في ان الوعي المستنتج من هذه التسمية هو وعي (عفوي) وليس (اميا) كما يتبادر الى الاذهان اول الامر فهو وعي متحصل لنمط من الرواد صيروا للمقهى علامة مميزة وجعلوا له دالة خصوصية عليهم وعليها، فقد يكون هذا من قبيل الاحتراس الضمني في تبادل الادوار بين المقهى ورواده من الادباء، وهي ادوار ذات لعبة مفضوحة الاسرار يلجأ اليها الطرف الاول –المقهى عادة.. تبعا لحالتي الاتساع والانغلاق المشار اليهما في توطيد او تشتيت العلاقة ذات المنفعة المشتركة.

التسمية المتفق عليها بلا شروط معلنة (مقهى الادباء) لم يخضع لاشاعة قديمة او حديثة، بل الى حقيقة يومية ملموسة ترسخت عبر معاناة اجيال وانصراف حقب، وترسخت في اوقات مضت ثم اضمحلت في اوقات اخرى، ثم عاودت الظهور حقيقة لا مفر من اقرارها واعتمادها/ من وجهة نظر المقهى/ مكسبا قادما من ظروف متفجرة حملت معها ظواهر بشرية وادبية تناوبت في الجلوس على تخوت المقهى وما تزال متشبثة بها عنوة.. ثم ان غياب وجوه متعددة لهذا السبب او ذاك وانحسارها وظهور بدائل شرعية وغير شرعية اخذت تتسيد المكان– المقهى بوصفها وريثة للوجوه الغائبة او امتدادا لواقع الحال الادبي في مشهده الواسع.. كان هذا اعطى (ادارة) المقهى وهي ادارة لم تتبدل خلال عقد من الزمان ونصف زخما معنويا ظاهريا وباطنيا في مغازلة تلك التسمية او اخراجها الى الوجود وعدها واجهة اجتماعية منيرة تبز بها مقاهي القمار والريسز والصفات التجارية التي تتم عبر دخان النارکيلات ذات الرائحة التي لم ولن تتغير الى وقت ليس قريبا؟

لماذا هذا التحول البطيء في النظر الى الرواد المزمنين والجدد ممن وضعوا ثقتهم في القدر على امل الايغال في احلام اليقظة؟.

ما يفكر به المقهى

لا استطيع الجزم بما (يفكر) به المقهى؟ ولكن لدي تخمينات اولية معززة بالشواهد الدالة على مثل هذا التحول، ولعلها شواهد مستقاة من صميم العلاقة اليومية النافذة، وهي شواهد قام بها بعض المسرحيين اول الامر ثم اتسع الامر الى آخرين من الشعراء وكتاب القصة/ فالفسحة العارية القريبة من نافذة الشارع كانت محرمة على الجميع قطعا/ وظل الشك يراود (ادارة) المقهى في ان اية حركة يقوم بها بعضهم سوف تكون مرصودة من عيون غريبة مبثوثة هنا وهناك وهذا شك له اساس تطبيقي في واقع العلاقة بين المكان ورواده لانه من ذاكرة قديمة دهمتها الفوضى ردحا طويلا من الزمن وربما ظرف الحرب اسبغ طاقة غريبة على وعي عفوي/ شبه امي/ كبرت امامه الفجيعة فتصور ان الاعلان عن مسرحية او امسية شعرية هو بالضرورة سوف يكون احالة لا واعية الى (ملصق) ناشز قد يسبب الخراب؟؟.. لكن التمرد ظل قائما، فظهرت/ عنوة، ملصقات اخرى صغيرة اخذت تتكاثر وتنمو بعناد معلنة عن امسية شعرية او ندوة قصصية او عرض مسرحي، يسار الجالس قريبا من نافذة الشارع.. وهي موجهات انية لمشروعات حقيقية او متخيلة او مجهضة او تحمل قدرا لا بأس به من الاماني واحلام اليقظة التي تتحفز، عبر الشاشة المجانية، آملة ان تكون حقيقة يجب الاعتراف بها لاحقا.

ان (استباحة) الشاشة الامامية قصد وزوال الخطر المحتمل جعل تحولا آخر/ وان كان بطيئا/ يتردد في (رأس) المقهى؟ وهو تحول مشهود في ستراتيجيتها؟ وأظن ان لهذا اسبابه التي لا اجيد الافصاح عنها كمحايد..

وكان ذلك التحول السلحفاتي هو عبارة عن اشارات مصالحة ضمنية لتبني التسمية، للاعلان الصريح عن انتماء خجول لهذا الواقع المتوثب دائما.. فاخذت التحولات البطيئة تظهر بوصول الرسائل الواردة الى الاخرين، من داخل العراق وخارجه، وهي تجد طريقها سالكا للمرسل اليهم، بل كان تارة المقهى اكثر حرصا على ايصالها بالسرعة الممكنة، تنفيذا لا واعيا لقرار التسمية غير المعلن صراحة باقامة جسر جديد عن العلاقة (المتكافئة) بين الاثنين ظاهره ايماءة للتميز والتفرد، وباطنه مرتهن لظروف قادمة.

وما دامت التخمينات الممكنة لها طاقة لاستخلاص شيء من النتائج الدالة فمن الضروري ان نتذكر اللافتة السوداء التي وضعها المقهى بعد وفاة القاص موسى كريدي ينعى مقهى الادباء الاديب موسى كريدي، باشارة صريحة ومباشرة لهيمنة التسمية الجديدة والاعلان عن (هوية) اجتماعية ٠ ادبية لاسيما ان اللافتة ظلت وقتا اكثر مما يجب ملصقة على حائط المقهى وفي مكان لا يجلس فيه الادباء عادة!!.

وهذه هي اول مرة في تاريخ المقهى توضع فيه مثل هذه اللافتة باسم يحمل مقهى الادباء،

تشكل المقهى من وعي (داخلي) وآخر (خارجي) يحددها (شكل) داخلي و(شكل) خارجي، وبنتيجة رياضية سيكون ثمة (شكل داخلي) و(شكل خارجي) وهذا الاخير ينسب الى تخطيط عمراني سابق يقع في التخطيط العمراني العام لشارع الرشيد ذاته

هو حالة توجب الاخذ بها سلفا والارتكاز الى (مضمونه) فهذا المكان – المقهى بتحولاته الطريفة البطيئة ينبغي ان لايوصف بحالة لانه يوصف ويفلسف على اساس ارتباطاته بالتاريخ والزمان والحيوات المتناوبة عليه، كما يرجى الا يفهم ان لنا موقفا من التسمية، على بساطتها، التسميات زائفة ولكن موقفنا يتوزع في القراءة المكانية للمقهى وتكوناته وتبدلاته الظرفية وغير ذلك مما يتيح المجال للاخرين في قراءته مرات ومرات على وفق طبيعة كل قارئ وارتباطاته القسرية او العفوية بهذا المكان.

موازنة ممكنة

ان خلق موازنة بين طرفي العلاقة سيبدو امرا ممكنا على صعد شتى، فأي مكان اليف نواظب على ارتياده سوف يخلق فينا متنفسا ويطلق في دواخلنا امكانات مختلفة النيات على

منحيا اسمه القديم مؤقتا ومعلنا انتماءها الواضح الى فصائل الادباء في تحول استراتيجي سريع وحاسم وربما وجد بعض الادباء ان الاسم الجديد، على وفق اللافتة ليس مشروعا على هذا النحو المباغت برغم المهمات الاولية التي حاول بعضهم تكريسها عبر شاشة الحائط المتسخ الى الابد برغم ان تلك التسمية ترضي غرور الكثيرين منا ساعدهم الحظ او الموهبة على الوصول الى تخوت (مقهى حسن عجمي) والجلوس الطويل بأمل قطع التذكرة الثانية في القطار الصاعد الى .. الاحلام!!.

سيكون من الواضح انه يجب تخطي التسمية وعدها (حالة) ما، فأية حالة لاتوصف هي عرضة للقلق والارتكاز واي وصف كهذا الفهم والافهام واستقطاب التجارب المحررة والمكبوتة وسوف نتمكن من تفسيرها والتعامل معها بحرية مثالية، لذلك فاقامة التوازن بيننا وبين المقهى– مكانا ثابتا– نحن الذين نتحرك– هو امر بديهي اذا ما توفرت خصال مشتركة في القدرة على الاستيعاب والتحليل والاستنتاج وان ترددنا الى هذا المكان هو غاية لتحقيق ما هو متخف في دواخلنا اولا او الاعلان عن اشياء بعينها، وهذا منطق متحرر قياسا الى الضغوط الهائلة التي نحملها وتحملنا، لاسيما ان عصر القراءات الصامتة– الودية التي تحمل قدرا من الالفة والطمأنينة قد ولى وحل محله عصر النظريات والشكاوى والبحث عن طرق سريعة للوصول الى اي شيء وكل شيء، ولكن ماذا يحصل لو ان المكان اخذ يتحرك ونحن نبقى في وضع الثبوت؟.

ان سؤالا كهذا سيبدو مفترضا لكن هذه الفرضية قابلة للتحقيق، فعلا، لان الاسئلة عادة لاتولد من فراغ ولابد لها ان تكون محررة من عقد واشكالات وسوء فهم اكيد وربما سوء نية ايضا؟. وعلى هذا الاساس يكون السؤال مغايرا لواقع التطابق المطلوب بين المكان وشاغليه الدائمين وهو سر لايبحث عن جواب قاطع عن مكان ينبغي ان تكون له فرادة قصوى سواء في ثبوته واقعا وفي تحركه رمزا يحتمل شتى التوصيفات.. اما بقاؤنا في وضع الثبوت فهو احتمالية مرجحة لكننا لا نحل محل المكان – المقهى ولانكون بديلا لوعاء قابل ان يحتوي احلام اليقظة.

ان الثبات حالة لاتتطابق مع مكوناتنا الداخلية، ما كان منها معلنا وما كان سريا،، واعتقد انه ليس بوسع احد تقبل هذه الاحتمالية او مجرد التفكير بالوصول اليها، والا استحال الى كائن من اثاث؟. اي جزء من مكان، بل حالة طارئة غير اصيلة، على مكونات المكان ذات.

ذاكرة المعاني

يشكل المقهى من وعي (داخلي) وآخر (خارجي) يحددها (شكل) داخلي و(شكل) خارجي، وبنتيجة رياضية سيكون ثمة (شكل داخلي) و(شكل خارجي) وهذا الاخير ينسب الى تخطيط عمراني سابق يقع في التخطيط العمراني العام لشارع الرشيد ذاته، وليس لاحد فضل تأشيره فهو واقع محالة، فيما ينسب الاول الى الرواد المتعاقبين وهم يحملون (هوية) محددة ذات ملامح واحدة تقترب وتتباعد بحسب ظرفها، الشخصي وهي في الحالات كلها خارجة عن السياقات التقليدية لهويات الرواد التقليديين وبذلك تكون الشكل الداخلي وتمنح المكان (هيبة) جديدة وتوفره وتبعده عن سطحية الامكنة – المقاهي اي ان الحالة الثانية وعي – خارجي– شكل خارجي،، ستظل تابعة الى الحالة الاولى وعي – داخلي – شكل داخلي،، مستثمرة التغير والتبادل والولادات التي تقذفها اليقظة في التكونات الجيلية المستمرة والتي شغلت الفراغات وتركت وجوها بديلا لتكرار الوجوه الغائبة وارثة ملامحها الادبية وهويتها التي لاينقطع نسلها ذات يوم.. وكل ذلك لايجري مصادفة، كما انه لايجري بتخطيط قبلي.. انما عبر (لغة) موروثة فرضت على المقهى حقيقة مقررة،، هي في كل حالاتها قادرة على بث تقاليد مدنية مثقفة داخل هيمنة المقهى التي تحاول الموازنة بين شروطها الاستهلاكية وبين (انتمائها) الذي سيبقى معلقا الى اشعار آخر!.

ان الادباء– الرواد، بوصفهم الحالة الاكثر تماسا مع (لغة المقهى) و(لغة) المجتمع سوف تكون لديهم الفرصة تلو الفرصة لان يقوموا (شكل) المقهى داخليا مبتعدين عما هو عارض وآني ومستهلك.. باحثين عن كنه (المعاني) المتوافرة بافراط وصولا الى تحقيق غرض متعدد الاضاءات سيدخل العملية الابداعية.. قصة وشعرا ورواية ومسرحا.. وهذا ليس شائكا اذا اخذ بنظر الاعتبار ان خطورة (المكان) هي في تحوله التدريجي الى (زمان) اي (لامكان).. ان هذا الانقلاب المتوقع سيحول طبيعة المقهى من حالة متحركة الى حالة من الفراغ والثرثرة واليأس.. فيتحول (الشكل الداخلي) الى حلبة من الصراعات النفسية والاشاعات وتثبيط الهمم.. اي يتحول المقهى الى (لامقهى).. ان الفرصة متوافرة حتما الى اقامة محددات جمالية صارمة في اعادة تنظيم الشكلين/ الداخلي والخارجي/ الى (معنى) اكثر شمولية وفائدة وتأثيرا على اساس ان المكان جزء لا ينفصم من الواقع المتحرك.. بل هو جزء واسع من ذاكرة (المعاني) التي قد لاتتكرر في شرائح المجتمع الكثيرة/ التي تتردد على المقاهي هاربة من اسى او ضجر او حالة او لحظة او يأس او أمل او وهم او حلم او تأمل..

اخيرا: ان كبرياء المقهى من كبرياء رواده.. اما زمانه فهو من زمانهم..

وجد المقهى (حسن عجمي) بوجود شارع الرشيد، فهل نستطيع ان نتصور العكس؟ لا اعتقد ذلك فالمقهى ليس له علامة فارقة في شارع الرشيد وليس له علامة فارقة في ذاكرة مسافر او عابر او طالب جامعي قاده الواجب الدراسي للبحث عن مصادره في شارع المتنبي .

تقع مدينة الكاظمية على ضفاف نهر دجلة. معلومة جغرافية عراقية لا تعني العراقيين. بل هي تعنيني أنا بالذات، في هذا الحديث عن ذكرياتي في المدينة. الأماكن السكنية كانت، في الفترة التي كنت أقيم فيها في تلك المدينة في أواخر أربعينيات القرن الفائت، تبتعد قليلاً عن النهر، وتتجه شمالاً. أي أن كثافة البنيان كانت تقترب من «الحضرة»، هذا ما بدا لي فور وصولي إليها، وبدء إقامتي في منزل نسيبي حسين مروة، المنزل الذي كان يقع على مقربة من «الحضرة»، المقام الديني الذي يضم ضريح الإمامين موسى الكاظم ومحمد الجواد.

الوجوديون العراقيون الأوائل

مقهى (الواق واق) في الأعظمية

كريم مروّة

لم تكن الكاظمية، كما أذكر، تتسع لمطامحي في مطالع العمر، في ذلك التاريخ. لذلك كانت بغداد هي طريقي الأرحب إلى عالم المعرفة، المعرفة بكل ما كانت مطامحي تشدني إليه في العالم المعاصر خصوصاً، وفي التاريخ القديم كذلك. والطريق الذي كان عليّ أن أسلكه للوصول إلى بغداد يقضي بأن أجتاز نهر دجلة. وكان يربط الكاظمية ببغداد جسر خشبي، تكاد تشعر وأنت تعبره، مشياً على الأقدام، أو بإحدى الحافلات، كأنك مهدد بالوقوع في أي لحظة وسط النهر، الذي كانت مياهه المنسابة ستقودك، إذا ما وقعت فريسة لجريانها، إلى ما لا تعرف من أماكن في الأعماق وفي الأبعاد. لكن ذلك الجسر الخشبي كان، رغم ما كانت تشير إليه اهتزازاته وقعقعة جوانبه وضجيجها، أميناً على حياة العابرين فوقه، وقوياً يستعصي على التفكك والإنهيار. إلا أن الوصول إلى قلب بغداد، عبر ذلك الجسر الخشبي، كان يقضي بالمرور الإلزامي في حي الأعظمية. والميزة الأساسية لحي الأعظمية إنما تكمن في أنه يحتضن مقام الإمام أبي حنيفة. وكان ذلك المقام يقع في الطرف الغربي من ساحة كبيرة، لا أعرف أين أصبحت الآن وسط زحام الأحداث. وكان يقع في الطرف الشرقي من الساحة المقر العام لأمانة العاصمة.

أثار فضولي، وأنا أعبر للمرة الأولى ذلك الجسر الذي يربط الكاظمية ببغداد، ما شاهدته من تشابه ومن اختلاف بين المعالم الدينية والعمرانية في كل من مدينة الكاظمية، وحي الأعظمية. وكان عليّ أن أبحث عن الطريق الموصل إلى اكتشاف السر الكامن في تلك المعالم في الضفة الشمالية من النهر، وفي الضفة الجنوبية منه، بالإختلاف وبالتشابه بين الضفتين وبين تلك المعالم ذاتها. لكنني لم أتابع ذلك البحث، بعد أن استقر بي المقام في العراق، وبعد أن تعمقت علاقتي ببغداد، المتعددة طوائفها، ومذاهبها، والمتعددة القوميات غير العربية فيها. وكان دليلي الطبيعي في ذلك الحين، إلى الكثير من المعارف وإلى الكثير من العلاقات، ابن عمي ورفيق عمري نزار مروة، الإبن البكر لحسين مروة. ذلك أننا كنا نجتاز الطريق ذاته كل صباح إلى بغداد، أنا إلى المدرسة «الجعفرية»، مدرستي، وهو إلى مدرسة «شمّاش» اليهودية، مدرسته. وكان أبو نزار رفيقنا في الطريق ذاته وفي الوقت ذاته وفي الإتجاه ذاته لإلقاء محاضراته في عدد غير قليل من مدارس بغداد، ومن بينها «الجعفرية» و«شمّاش»، فضلاً عن ممارسة مهنته الكتابية في صحف ومجلات تلك الفترة من حياته وحياتنا في العراق، في الربع الأخير من أربعينيات القرن الماضي.

كنا، نزار وأنا، شغوفين في متابعة النشاط الأدبي. كنا، في ذلك الحين، مشاريع أدباء. وكنا، في الوقت ذاته، نحرص على إقامة علاقات مع من كانوا أصدقاء حسين مروة من أدباء تلك الحقبة من تاريخ العراق، الكبار منهم، والناشئون. وكنا نمارس الكتابة، كل على طريقته، في الميدان الأدبي، إبداعاً وترجمة. وكانت جريدتا «الرأي العام» و«الأخبار»، في ملحقيهما الأدبيين، المنبرين اللذين كنا نمارس فيهما بدايات اهتماماتنا الأدبية، قراءة ونشراً. وكنا نتابع ما كان ينشر في المجلات الأخرى، لا سيما «الهاتف» لمؤسسها جعفر الخليلي، و«الحضارة» لمؤسسها محمد حسن الصوري.

كان بلند الحيدري، في ذلك الزمن، قد بدأ يشق طريقه كشاعر حداثي. وكان قد أصدر أول ديوان له بعنوان «خفقة الطين». وكان قد أنشأ مع عدد من الأدباء والفنانين الشباب جمعية أعطوها صفة المقهى الذي كانوا يلتقون فيه، «مقهى الواق واق»، تشبهاً بـ«جزيرة الواق واق» الأسطورية. واختاروا لهذا المقهى موقعاً وسطاً في حي الأعظمية بين طرفي ساحتها، أي بين مقام الإمام أبي حنيفة، ومقر أمانة العاصمة، وفي الجهة الجنوبية تحديداً.

قررنا، نزار وأنا، أن نقيم علاقة مع تلك الثلة من أدباء وفناني تلك الحقبة، ليس للإنتماء إليها بالضرورة، بل للإستفادة من النقاشات التي كانت تجري بين أعضائها، عندما كانوا يلتقون في ذلك المقهى، الإستفادة بالإستماع وبالإستمتاع فقط.

نزار سليم

بلند الحيدري

كانت الثلة مؤلفة من الشاعر بلند الحيدري ومن شقيقه صفاء الحيدري الشاعر البوهيمي، ومن المثقف القادم حديثاً من فرنسا ابراهيم اليتيّم، حاملاً معه حصيلة ما كان قد اكتسبه من ثقافة في عاصمة الثقافة العالمية، ومشيراً، خلال حديثه باللغة الفرنسية وباللهجة الباريسية، إلى أنه الإبن البار لتلك العاصمة ولثقافتها وللغتها وللهجتها، التي تجعل الراء غيناً. وكان من بين الثلة كذلك النحات خالد الرحال، والشاعر نزار سَليم، شقيق النحات جواد سَليم، الذي لم يكن قد عاد من أوروبا حاملاً معه تراثه الذي سرعان ما صار واحداً من الرموز الأساسية للفن العراقي الحديث.

كان بلند الحيدري وابراهيم اليتيّم ينتميان في ذلك الحين إلى الحركة الوجودية. وكان جان بول سارتر هو الرمز الأكبر لتلك الحركة. ولم أكن قد سمعت بتلك الحركة قبل ذلك التاريخ. في حين أن رفيقي ونسيبي نزار كان قد سمع بها، وقرأ، واستوعب بعض ما تشير إليها أفكارها وأفكار سارتر. لكنني لم أجهد يومذاك لمعرفة أسرار تلك الحركة وأفكارها ومبادئها. واكتفيت بما سمعته يتكرر في أحاديث كل من بلند وابراهيم. وقد بدا لي في ذلك الحين ما يشبه التنافس بين الاثنين حول من هو الأكثر ثقافة، بشكل عام، ومن هو الأكثر تعبيراً عن الوجودية في أفكاره وفي سلوكه. وفي حين كانت ثقافة بلند إنكليزية فإن ثقافة ابراهيم كانت فرنسية. لكن ابراهيم اليتيّم بدا لي أكثر غروراً من بلند، لا سيما في الطريقة التي كان يعرض بها أفكاره، الطريقة التي كان يبدو لي فيها ابراهيم كعالم بأمور لا يمتلك أسرارها سواه. غير أن ذلك الإنطباع سرعان ما تبدد عندما دخلنا، بعد عقد ونيف، في علاقة صداقة حميمة عرفتني إليه وإلى شخصيته وإلى ثقافته وإلى خصاله الإنسانية. إذ كنا قد انتقلنا كلانا من أفكارنا القديمة وتحولنا يساراً. أما بلند فكان، برغم إحساسه الصارخ، في ذلك الوقت، بأنه كان يشق الطريق إلى الحداثة في الشعر في التنافس مع صديقيه بدر شاكر السياب ونازك الملائكة، أكثر مرونة وأكثر احتراماً لمشاعر الشابين، نزار وأنا، القادمين حديثاً إلى عالم الأدب. وبدأت العلاقة بيني وبين بلند تتوطد، منذ ذلك التاريخ. لكنها صارت، في ما بعد، صداقة عمر بكل المعاني. وكان قد تحوّل هو الآخر من الوجودية إلى اليسار مثلنا.

كان خالد الرحال إنساناً جميلاً، محباً للحياة، سريعاً في تكوين علاقات الصداقة مع الآخرين. لذلك توطدت علاقة الصداقة بيني وبينه منذ البدايات. واستمرت على مدى العامين اللذين قضيتهما في العراق. ولم نعد نلتقي منذ ذلك التاريخ. ومعروف أن خالد الرحال قد تحول منذ الأعوام الأولى لممارسة فن النحت إلى واحد من كبار رموز الفن العراقي الحديث مع جواد سَليم وآخرين من رعيل تلك الحقبة من الفنانين العراقيين.

لم يعش طويلاً مقهى «الواق الواق» في حي الأعظمية. وانقطعت علاقاتي به، بعد أن توسعت علاقتي أفقياً بعالم الأدب والسياسة، وبعد أن اخترت السير في حياتي في يسار الطريق، ضد يمينها. وفي مطالع ستينيات القرن الماضي، أي بعد عقد ونيف من ذلك التاريخ الأول، صارت لعلاقتي مع بلند الحيدري خصوصاً نكهة أخرى.

وإذ انقطعت الصلة بيني وبين ابراهيم اليتيّم، ولم أعد أسمع عنه وعن أخباره شيئاً، فقد ودعت بحزن كبير صديقي بلند في أواسط تسعينيات القرن الماضي، بعدما كنا قد التقينا في لندن، وتحدثنا عن مشاريع كثيرة وكبيرة.

سبق لهذا الموضوع ان نشر في مجلة الاسبوعية في 2007

مقهى الرشيد (البرلمان) كما عرفته

ابراهيم الوائلي

مقهى الرشيد

في بغداد والكاظمية مقاه كثيرة لم يبق منها الان الا القليل وكان بعض تلك المقاهي مثابة للشعراء والادباء والصحافيين، اذكر منها المقهى الصيفي الذي يقع عند الجسر القديم من جهة الكاظمية وكان من ابرز رواده الشاعر الكبير معروف الرصافي حين كان يجمع اوراق شيخوخته ليعلن الرحيل، فقد كنا نشاهده في سنة ١٩٤٤م عند الغروب وهو يعبر الجسر مشيا من الاعظمية حتى يصل فيستقر على تخت وحده وقد ارتدى العباءة الصيفية واعتمر الكوفية البيضاء والعقال، وقد نجلس اليه بعد الاستئذان- ونسأله عن شؤون الادب والشعر فيجيب بايجاز ولقد كان في جلسته وحديثه وضخامة تاريخه الادبي يفرض علينا ان نهابه ونحترمه.

ومن رواد ذلك المقهى الكاتب الصحافي الراحل يوسف رجيب، واخرون ومازلت اذكر لحظة اهتزاز الشجر من حولنا والكراسي تحتنا بسبب هزة حدثت للارض في صيف سنة ١٩٤٦ م وكنا جالسين في ذلك المقهى نستمتع بشاطئ دجلة.

وفي الكرخ مقهى البيروتي وهو يطل على دجلة عند الجسر وقد انتهى وهدم ودخل في الساحة الكبيرة وكان من رواده بعض الادباء والمحامين اذكر منهم الشاعر محمد الهاشمي والشاعر الصديق عبدالحسين الملا احمد والمحامي الكاتب توفيق الفكيكي وكلهم ودعوا الحياة ومقهى الحاج خليل القيسي وهو يطل على شارع الرشيد قبالة شارع المتنبي وكان من رواد هذا المقهى الشاعر الراحل جميل احمد الكاظمي والشاعر كمال نصرة وغيرهما من الادباء وكان صاحبه الحاج خليل يرحب بالقادمين ويعنى بهم.

ونترك مقهى الزهاوي ومقهى حسن عجمي ومقهى البلدية ومقهى الدفاع وغيرها في الرصافة، ومقاهي الكرخ والصالحية فالحديث عن هذه يطول ولكننا نقتصر الحديث على مقهى (البرلمان) او (مقهى الرشيد) كما سمي بعد ذلك، وهذا المقهى يقع في شارع الرشيد قبالة جامع الحيدرخانة وقد عمر اكثر من اربعة عقود فقد افتتح في اوائل الحرب العالمية الثانية واغلق قبل سنوات وقد انشأه الحاج حسين فخر الدين وهيأ له من اسباب الراحة والتسلية ما ينبغي ان يكون وفرش تخوته بالسجاد ليدرأ به برد الشتاء وجمع فيه النرد والشطرنج والدومنة الى جانب الشاي والقهوة والبوارد، واذكر اني دخلت هذا المقهى اول مرة في خريف سنة ١٩٤٠م وكنت ازور بغداد ثالث زيارة فرأيته على سعته مزدحما بالرواد وبخاصة يوم الجمعة، وقد اعتاد القادمون من النجف ومدن الفرات الاوسط ان يلتقوا فيه ولاسيما الشيوخ والنواب والتجار والادباء وكان صاحبه الحاج حسين فخر الدين، وهو من اسرة نجفية معروفة- على صلة بهؤلاء القادمين فقد كان ينظر اليه بوصفه من الوجهاء لا بوصفه صاحب مقهى.

وكنت ارى في هذا المقهى وجوها كثيرة من انحاء العراق فهذا احد ابناء الشيخ شعلان ابو الجون وذاك السيد كامل ابو طبيخ بوجهه الصبوح وثيابه الجميلة، وبالقرب منا صديقنا الراحل عزيز الظالمي بعباءته وكوفيته البيضاء، وذاك صديقنا الراحل جعفر الاعسم جاء لبعض اشغاله وقد يبتسم حين نستعيد الى الذاكرة نبأ اعتقالنا في النجف وقد وجهت الينا تهمة تحريض العشائر على الثورة وفي مقدمتنا الشاعر محمد صالح بحر العلوم، وهذا الصحافي الاديب جعفر الخليلي- يعتمر الصدارة- وقد جاء من النجف يبحث عن ورق لجريدة (الهاتف)..

جعفر الخليلي

وذاك (نائب) جاء ليعلن عن فوزه في كرسي النيابة، وصوت النرد والدومنة يملأ الاذن قبل صوت المتحدث القريب الا حين تذاع اخبار الحرب وقد تلوح البهجة على الوجوه حين يذاع نبأ عن انتصار دول المحور فقد كان العراقيون يكرهون الانكليز ويتمنون هزيمتهم في الحرب ماعدا الظالعين معهم..

والصديق الراحل الشيخ عبدالباقي العاني امام جامع العاقولية بعمته وجبته جاء يريد قصيدة لمجلة (الناشئة الاسلامية) ولابأس من التسلية بلعبة النرد فقد كان يتجدر فيها..

وكذلك الكاتب الاديب سليم طه التكريتي وهو يبتسم بعد ان تكون مواد جريدة (الرأي العام) قد صارت الى المطبعة والشاعر محمد صالح بحر العلوم يجلس الى نفر من الشباب وعيناه تتحديان القادمين والذاهبين وكان يكره الانكليز والالمان على السواء وربما كان له عذر في ذلك فالانكليز يحتلون العراق والالمان اعلنوا الحرب على الاتحاد السوفيتي.

وقد يكون من الرواد صديقنا المؤرخ الراحل السيد محمد علي كمال الدين وقد اعتمر الصدارة التي كانت شائعة انذاك ويده تداعب خرز السبحة، وقد نرى الشاعر الراحل عبدالرزاق محيي الدين يجلس بالقرب من صاحب المقهى ومعه الاديب الراحل عبدالكريم الدجيلي.

وفي مكان قريب يجلس الكاتب يوسف رجيب ودخان (النرجيلة) يملأ رئتيه ولعبة النرد تستبد بوقته.

ويتكئ الى النافذة الاديب عبدالحميد الدجيلي ولعله يفكر في اللغة والنحو، وكانت على الجدار صورتان وفي اول مايس من سنة ١٩٤١ تغيرت احداهما وانتهى شهر مايس فعادت القديمة الى مكانها وطويت الصورة الطارئة، وقلت للحاج حسين: احتفظ بالاطار فقد تتغير الصورة مرة اخرى، فقال: وما يدريك فقد تتغير الصورتان معا.

نحن في اوائل العقد السادس من هذا القرن والمقهى مازال مزدحما بالمرتادين والحاج حسين يجلس الى صندوقه عند الباب والكهل الطيب (وهل) يفترش الرصيف قرب باب المقهى وقد نشر الصحف والمجلات وهو في كل صباح ومساء يطوف داخل المقهى ويوزع الصحف على الراغبين في قراءتها ويأخذ من كل واحد اجرا لايتجاوز عشرة فلوس.

عبد القادر البراك

انتقل بعضهم الى مقاه اخر، وبقي رواد الشطرنج والنرد والنرجيلة واصدقاء مازالوا يبتردون صيفا او يستدفئون شتاء في اوقات الراحة ومنهم خاشع الراوي وفؤاد عباس والمحامي محمد نجيب الجبوري وعبدالقادر رشيد الناصري وهؤلاء الادباء الشعراء ودعوا الدنيا الى ظلام القبور.

ولكنني مازلت ارى الشاعر شفيق القيماقجي يأخذ مكانه الى جانب خضر العباسي، وقد يرتاد المقهى الصحافي المتنوع عبدالقادر البراك فينتحي جانبا مع عشيقته (النرجيلة) وهو يحيي عارفيه بابتسام وتواضع.

والشاعر بلند الحيدري يسلم ويجلس وهو يمزج الضحكة الخفيفة بالانفعال والتذمر من فراغ الجيب ولكنه لاينسى الحديث في الشعر واللغة ولعله كان يوافقني في الرأي ان الشاعر بلا لغة كالجندي بلا سلاح وكثيرا ما يدخل الشاب النحيل بدر شاكر السياب وهو يتهادى في مشيته ويتأبط كتابا فيجلس ويشارك في الحديث.

وفي مقعد قريب يجلس الشاعر حسين مردان والسيجارة لاتفارق شفتيه واحاديثه في الشعر والنقد.

والشيخ علي البازي شاعر المؤرخين جاء من الكوفة ليجدد العهد ببغداد وقد جلس و(النارجيلة) الى جواره.

والشاب المسكين الذي وعده المرشح ان يجد له عملا بعد الفوز بكرسي النيابة ولكن ذلك المرشح لم يوف بوعده، قلت للشاب: لابأس فهذه رسالة الى صديق وجاء الشاب بعد اكثر من ساعة وهو مستبشر فقد وجد له الصديق عملا مناسبا.

نحن في سنة ١٩٥٩م وهذا بدر شاكر السياب يخرج من المقهى وكنت قادما اليه فيسلم وقد امتص المرض دمه وزاده شحوبا على شحوب، قلت: الى اين بدر؟ فقال: لست ادري، ولعله كان يعاني ازمة تصطرع في اعماقه فلا يدري الى اية جهة يصير، وسألته ما رأيك في اتحاد الادباء الجديد؟ فقال: لا ادري فقلت له: اتشارك فيه؟ فقال: ها.. لا ادري.. كان السياب يحب ان اتحدث اليه ويتحدث الي وفي تلك الاثناء طلبت منه ان يرافقني الى زيارة الصديق الاستاذ ذنون ايوب فاجاب طلبي بلا تردد وكنت اسعى الى ان يكون لبدر شأن في اتحاد الادباء وذهبنا الى مكتب الاستاذ ذنون في (السراي) وكان اذ ذاك مديرا للرعاية وقبل ان يستقر بنا المكان قلت: يا ابا ثائر ها هو ذا بدر بجسمه النحيل وشاعريته الضخمة ورحب بنا الاستاذ ذنون وتمنى ان يحتل بدر مكانه في الاتحاد. ولكن السياب كان ساكتا لايدري مايقول سوى ابتسامة تعبر عن حيرة وشرود فكر، وافترقنا على غير ما اتفاق، ثم غاب بدر وهو يصارع ازمته ومرضه واغتاله الموت بعيدا عن محبيه.

وفي السنين القريبة جاء شاب من النجف كان من المأمول ان يكون له شأن في دنيا الشعر وكنت استمع اليه وهو ينشدني قصائده الرقيقة ويسمع مني الاطراء والثناء ولكنه اخذ يرتاد مقهى الرشيد وقد لعبت به الشمول، ولم ينفع معه النصح فمات وهو شاب، انه عبدالامير الحصيري، وثقلت رجلاي عن ارتياد مقهى الرشيد فصرت لا ازوره الا لماما بل لقد اثرت البعد عنه فكنت امر ولا اتلفت واذا تلفت فالمقاعد خالية من الاصدقاء الا القليل فقد انطفأت شموع وغابت كواكب واستبد التراب بالكثيرين.

وفي يوم من نهاية المطاف مررت مجتازا بباب المقهى فاذا شخص يسرع الى الخارج ويدعوني الى الجلوس انه الصديق الراحل المحامي محمود العبطة فلم يكن بد من الاستجابة لدعوته ولقد كانت الزيارة هي زيارة الوداع للصديق العبطة وللمقهى الذي كان يصارع القدر في ساعة احتضاره.

بدر شاكر السياب

في بغداد والكاظمية مقاه كثيرة لم يبق منها الان الا القليل وكان بعض تلك المقامي مثابة للشعراء والادباء والصحافيين، اذكر منها المقهى الصيفي الذي يقع عند الجسر القديم من جهة الكاظمية وكان من ابرز رواده الشاعر الكبير معروف الرصافي حين كان يجمع اوراق شيخوخته ليعلن الرحيل.

جريدة الجمهورية
حزيران 1982

لم يكن ثمة شيء يلفت نظر الوافدين في الاربعينيات، ويثير عجبهم واعجابهم كمنظر المقاهي المنتشرة في كل شوارع بغداد وازقتها، وكمنظر اسواقها كسوق الشورجة الخاصة ببيع التوابل ومؤنة البيت، وسوق الصفارين حيث تصنع الأواني النحاسية، وسوق السراي التي تمتد على جانبيها دكاكين بائعي الكتب القديمة منها والحديثة، والتي تمد بنفسها الى اسواق اخرى.

بغداد بين مقاهي الأدباء وأدباء المقاهي

بلند الحيدري

وقد وعيت اثر المقهى في حياتي وانا في سن مبكرة، اذ كنت اهرب اليه من المدرسة مع بعض زملائي في الدراسة المتوسطة، وكان مقهانا المفضل آنذاك هو مقهى (البلدية) وباثر من كونه المقهى الوحيد الذي كنا نستمع فيه الى اغاني ام كلثوم ومحمد عبدالوهاب، وكل زبائنه كانوا على مثل هوانا في حبهم لهذه الاغاني وربما كان هو المقهى الذي استوحاه بدر شاكر السياب في قصيدته (اغنية قديمة) حيث يقول في مطلعها:

في المقهى المزدحم النائي.. في ذات مساء
وعيوني تنظر في تعب
في الاوجه والايدي.. والارجل واللهب
والساعة تهزأ بالصخب
وتدق.. سمعت ظلال غناء
اشباح غناء
تتنهد في الحاكي وتدور كإعصار
بال، مصدور
يتنفس في كهف هار
في الظلمة منذ عصور

واذا ما استثنينا هذا المقهى بمرمى من تلك الخصوصية، واستثنينا معه مقهى قريبا منه هو مقهى (الدفاع) المقابل لوزارة الدفاع حيث كنا نؤمه من حين لاخر لنلعب الشطرنج فيه، او لنتحلق حول لاعبي الشطرنج المعروفين الذين كانوا من رواده الدائمين، اقول اذا استثنينا هذين المقهيين، يمكننا ان نصنف مقاهي بغداد الى صنفين مختلفين لحد ما هما مقاهي (الطرف) او (المحلة) ومقاهي الشوارع الرئيسية، وتتوزع مقاهي الصنف الاول منهما النواحي المحيطة بمركز العاصمة، وحيث تتقاسم مساحاتها المفتوحة منها والمسقوفة، مصاطب خشبية تخت- وطاولات مستطيلة ومربعة، تتوسط ما بين تلك المصاطب ولا يتجاوز ضلع اي منها المتر الواحد، ويقتصر جمهورها على ابناء المنطقة، وجلهم من الطبقات المتوسطة او دونها، فبيوت مثل هذه الطبقات لم تكن لتوسع ابوابها لغير الاقارب والاصدقاء الحميمين جدا، وضمن زيارات عائلية، اما اللقاءات الاخرى فليس لها غير المقاهي، وحيث تمتد فيها الجلسات الى ساعات متأخرة من الليل، وقد اختلطت اصوات النرد والدومينه بأصوات المعلقين على لعب اللاعبين، وبقهقهات الضاحكين وصخبهم، وبأصوات ملاعق الشاي في الفناجين واحيانا بصراخ المتشاجرين والذين سرعان ما يلتف الجالسون حولهم لحل النزاع، والذي يكون عادة قد بدأ من ملاحظة عابرة حول خطأ في لعب النرد او الدومينه، او بأثر من طرفة قال بها احدهم فحملها الاخر على غير محملها، او بسبب من تعصب احدهم للنازيين او للانجليز، حتى اذا نجحت الوساطة عاد الصفو اليهم وتعانقوا، واستمروا في الذي كانوا فيه.

ولا تشذ عن هذه الخصوصية غير بعض مقاهي (الطرف)، اما بسبب من انها صارت المقر المعروف لهذه الشخصية الادبية او تلك الشخصية الرياضية او لغيرهما من اهل الفن، او لانها جاورت مؤسسة معينة فلزمها العاملون فيها، او لانها اصبحت ملتقى لنخبة من الادباء الشبان الذين لمعت اسماؤهم في اواسط الاربعينيات، وحيث يكون لهم ان يتحلقوا كل مساء حول احدى تلك الطاولات الخشبية الصغيرة ليواصلوا ما ينز من بين ركام الحرب العالمية الثانية.

ومن تلك المقاهي، مقهى صيفي يقع على مقربة من الجسر الخشبي القديم الذي يشد مابين منطقة (الاعظمية) ومنطقة (الكاظمية) وقد تعودنا ان نرى الشاعر العراقي الكبير (معروف الرصافي) يقطعه مشيا على قدميه، من الاعظمية الى الكاظمية، ليأخذ فيه مقعده الذي سرعان ما يتحلق حوله عدد من اصدقائه وبعض من اساتذة الادب وعدد من الشعراء والادباء الشبان، اليه بعض نتاجهم على امل ان يحظوا بكلمة منه فيها، ولم يكن امر ذلك يسيرا، فمحدثوه كثر واهميتهم اكبر من اهميتهم، وما لديهم كثير، وهيبة الرصافي الجدية، وطبيعة جلسته وانتشار عباءته واستقرار كوفيته وعقاله على رأسه وضخامة صوته، ليس من اليسير اختراقها بالنسبة لهؤلاء الشبان، وقد يحدث ان يتجرأ واحد منهم فيمد بيد مرتجفة قصيدته اليه وهو يهمس متلعثما وراجيا ان يقول رأيه فيها، فيأخذها منه بتثاقل، ثم يلقي بنظرة عجلى عليها ثم يعيدها الى صاحبها من دون اي تعليق، فيكتفي الشاعر الصغير المسكين بسكوته تعليقا عليها ويردها الى جيبه خجلا ويغادر المقهى.

واذا كان الرصافي كذلك بأثر من كبر سنه واوجاعه واوضاعه، فهو رغم ذلك كله وفي كثير من الاحيان على جانب كبير من الظرف وسرعة البداهة، واذكر مرة ان صبيا دلف الى مقهاه وقد تأبط رزمة من الاوراق، فما ان وقعت عينا الرصافي عليه وهو يتوجه اليه حتى ادار وجهه فينا وهو يقول (أعوذ بالله.. هذا هو تأبط شرا) وكان الامر كذلك اذ ما كاد لهذا الصبي ان يأخذ مقعده بيننا الا واستل كما من تلك الاوراق، مستأذناً الرصافي في ان يسمعه بعض شعره، وقبل ان يأذن له، راح صوت صاحبنا يلعلع في ارجاء المقهى بكلام لاطعم للشعر ولا للنثر فيه، فالتفت اليه متسائلا وبكثير من الجد (أأنت وحدك كتبت هذه القصائد العصم) فيرد عليه الصبي وقد افترشت وجهه ابتسامة فرح كبير (والله والله يا استاذ انا وحدي كتبتها كلها.. كلها من بطني انا). فيربت الرصافي على كتف الشخص الذي يحاذيه وهو يقول اكيد انها من بطنه الم تشم رائحتها فنفجر بالضحك دفعة واحدة وينسحب الصبي حانقا ولاعنا.

ولم تدم لقاءاتنا به في هذا المقهى الا لفترة قصيرة من الزمن، فقد اعتلت صحته كثيرا، وانقطع عنه وعنا، ثم كان ان غاب عنا في منتصف الشهر الرابع من عام ١٩٤٥، فانطفأ وهج المقهى بانطفاء حياته، وعادت ككل مقاهي (الطرف) ملتقى لابناء الحي.

ومن نماذج هذا الصنف من المقاهي مقهى كان يجاور كلية (دار المعلمين العالية) ولم يكن آنذاك في بغداد غير ثلاث كليات هي كلية الطب وكلية الحقوق، وهذه الكلية التي تعوّد طلابها ان يملأوا مقاعد المقهى، ضمن حلقات صغيرة، ليراجعوا دروسهم فيها، وعلى الاخص في ايام الامتحانات، وبهذه الخصوصية يتميز بكونه مقهى هادئا وعلى من يؤمه من غير الطلاب ان يراعي هذه الخصوصية، وكان من رواده من الطلبة يتناقلون فيما بينهم وبين اصدقائهم الكثير من النكات والنوادر التي كانت تروى عن صاحب المقهى، ربما كان اسمه (ابراهيم عرب) وتختلف آراء الطلبة بشأنه فمنهم من يحسبه رجلا ملتاث العقل، ومنهم من يعتبره رجلا حصيفا ادرك سر المهنة فجعل من نوادره سبيلا لرواج سمعة مقهاه ولأنه في غير هذه النكات والنوادر دقيق في آرائه واحكامه، ومن درس علم النفس من هؤلاء الطلاب ذهب في تحليله لشخصيته الى انه مصاب بعقدة النقص التي افرزت عقدة العظمة عنده، وقد سعيت مرتين اليه بصحبة واحد من الطلبة فما حظيت بلقائه، ومع ذلك فقد اعاد عليّ من صحبته ومن موقع المشاهدة بعض تلك النوادر فلكل شيء

في المقهى سر عظيم، فهذا الكلب الاجرب القابع عند باب المقهى والذي لايقوى على الوقوف هو سبب الحرب العالمية الثانية، ذلك لان ابراهيم عرب كان قد قدمه هدية، وهو مرغم، الى السفير الالماني، وعندما سمع بذلك السفير البريطاني غضب غضبا شديدا على ابراهيم عرب لانه سبق له ان سأله ان يهديه اياه فبخل به عليه، ولم يشفع له اعتذاره للسفير البريطاني الذي اصر على ان يستعيده، فما كان منه الا ان استرده من السفير الالماني، فكان ان اتصل كل منهما بدولته وتأزمت العلاقات بين الدولتين وهكذا نشبت الحرب وان الكلب لايزال هنا.. ومن تلك النوادر ان الطلبة شاهدوا ابراهيم عرب ذات يوم من ايام الصيف القائظة يدخل المقهى راكضا وهو يلهث ويتصبب عرقا، فبادروه بالسؤال عن السبب، فقال: آه لو تدرون ماذا حدث.. لقد كاد فريق الكرة العراقي ان يخسر لولا انه اسرع والتحق به فأنقذه من الخسارة، وقد ضرب الان الكرة عاليا- اي نجمها كما يقول العراقيون- وجاء مسرعا ليأخذ استكانا من الشاي ريثما تهبط الكرة، ثم يتركهم راكضا ايضا بعد ان اخذ رشفتين من الشاي ليعود الى الملعب قبل هبوط الكرة.. وفي الباحة المفتوحة من المقهى ثمة شجرة عجفاء، مايكاد ابراهيم عرب يرى وجها غريبا يدخل المقهى حتى ينادي بأعلى صوته على صبي المقهى ليسقي الشجرة ابريقا آخر من الشاي، فهي تكره الماء وتحب الشاي، ثم يلتفت الى صبي المقهى ليطلب شهادته على صحة ما يقول والويل له ان سكت او لم يجد له مدخلا لقصة جديدة،، قل لهم.. قل لهم من اين جئت بهذه الشجرة ياعم ابراهيم.. فيرد عليه ابراهيم عرب: الكل يعرفون.. كلهم يعرفون ذلك.. لقد قلعتها من حديقة نوري باشا بسحبة واحدة من يدي ولم ينقطع اي جذر من جذورها.. ولكومة الحديد المرمية الى جانب المقهى، قصة ايضا، فقد كان القطار يمر يوميا مرتين بمحاذاة المقهى وعزّ على ابراهيم عرب ان يزعج القطار بصوت عجلاته وصغيرة اعزاءه الطلاب فكان ان طلب من سائق القطار تغيير طريقه فما امتثل لطلبه، ثم كتب لنوري باشا ويقصد نوري السعيد رئيس الوزراء- ناصحا اياه بأن يأمر بتغيير طرق القطار فلم ينتصح ايضا، فما كان منه الا ان خرج لمواجهته حتى اذا دنا القطار منه عاجله بركلة قوية من رجله جعلت كل قاطراته تتهشم ويدخل بعضها ببعض وهذه الكومة من الحديد الصدئ (المزنجر) هي كل بقاياه واذا حدث لواحد من الطلاب ان ضحك، وكان في المقهى رجل غريب، امتعض ابراهيم عرب وقام ينادي بأعلى صوته على صبي المقهى ليسقي الشجرة ابريقا آخر من الشاي، وان لم يضحكوا لما يرويه عليهم وهم (وحدهم) معه غضب عليهم لانهم ماعادوا يستلطفون حكاياته، اما ان يعلن اي واحد منهم بأنه لايصدق بطولاته الخارقة، فتلك هي الطامة الكبرى فسيظل لفترة طويلة غاضبا عليه ويأمر صبي المقهى بأن لايقدم اليه اية خدمة، الى حين يتشفع له بعض الطلاب المقربين اليه، فيغفر له زلته..

وثمة مقاه، من جملة هذه المقاهي التي تقع في اطراف مدينة بغداد، ومن تلك مقهى البيروتي الذي يطل من جانب الكرخ على شاطئ دجلة وجل رواده من رجالات المنطقة المعروفين ولنخبة من الادباء والشعراء مكانهم المرموق فيها حيث يتصدره توفيق الفكيكي ومحمد الهاشمي وثلة من النازعين الى الادب القديم والمغرمين في ذرابة اللسان وصناعة الكلام المنمق والاخذين انفسهم بالنهج التقليدي في كتابة الشعر، وممن لايرون في الذي كنا نكتبه ونقوله غير فتنة وافدة من الغرب لتقويض التراث العربي، فما ان يطأ واحد منا باب المقهى حتى تتوجه اليه نظراتهم الشزرة وكأننا دنسنا

كان مقهى (الرشيد) سيد مقاهي شارع الرشيد ففيه يلتقي الكثيرون من رجال الفكر والادب وممن يؤثرونه على غيره بأثر من مكانة روّاده وحسن فرشه اذ ان كل مصاطبه مفروشة بالسجاد يوحي بوثرتها وبالدفء في ايام الشتاء، واترك للاستاذ اللغوي ابراهيم الوائلي وصف هذا المقهى الذي كان واحدا من رواده ومنذ بداية افتتاحه في عام 1940

بأقدامنا مقاهم، ولذلك آثرنا وبعد عدة زيارات لهذا المقهى ان نبحث عن غيره، خاصة وانه يبعد بعدا شاسعا عن اماكن سكنانا، فكان لنا ان اخترنا مقهى (الكسرة) الواقع ما بين باب المعظم والاعظمية، ملتقى لنا، نؤمه كل مساء لنتحدث عن تطلعاتنا الادبية، وعما قرأنا من جديد جان بول سارتر واليوت وكامو واديت سيتول وما سمعنا من اخبار عن المدارس الفنية الاوربية وكان من بين من يضمهم مجلسنا الشاعران حسين مردان ورشيد ياسين والفنانان نزار سليم وخالد الرحال، وفي كل مساء يضاف اسم جديد الى قائمتنا، ومنهم بدر شاكر السياب الذي صحبني اليه غير مرة، الا انه لم يأنس طويلا لجلساتنا بسبب من وجود حسين مردان وخالد الرحال واللذين ما ان يلتقيا حتى يعلو ضجيجهما على كل احاديث الادب والشعر، بينما كنا نرى في شجارهما ونكاتهما من يطري الجلسة،، ثم كان لنا مقهانا الخاص بنا (مقهى واق واق) والذي عرف عنه ان ملتقى الشعراء والادباء والعشاق..

يقول عدنان رؤوف، وهو واحد من ادباء جيلنا النابهين: كنا معا نذرع شوارع بغداد من مقهى النعمان في الاعظمية الى مقهى الدفاع حتى مقاهي شارع ابي نواس، مرورا بحلويات الدار البيضاء بالمقهى السويسري وفي المقهى البرازيلي في شارع الرشيد، ولقد تحررت اكثر صفحات مجلتي، الفكر الحديث- و- الوقت الضائع- في تينيك المقهيين وفي المطابع اكثر مما تحررت في المكاتب والبيوت..

واذا ما خرجنا عن مقهى (النعمان) في الاعظمية، بصفته من بعض مقاهي (الطرف) الى مقاهي شارع الرشيد ومقاهي شارع ابي نواس، ولكل من هذه المقاهي ما يميزها عن مقاهي الطرق وهي بذلك تشكل الصنف الاخر من المقاهي وبأثر من ذينيك الشارعين وخصوصيتهما، فشارع الرشيد هو العمود الفقري لمدينة بغداد، وفيه تلتم عيادات الاطباء والصيدليات الكبيرة، وفيه تتوزع الفنادق بأنواعها المتباينة وفيه ايضا المخازن الانيقة، ومنه تتفرع الشوارع الى سوق السراي وسوق الصفافير وسوق الشورجة، ولذلك فان رواد مقاهي شارع الرشيد هم في الغالب من عابري السبيل وان لايخلو اي مقهى من زاوية تجتمع اليها نخبة من الادباء، اما شارع ابي نواس الذي يسير بمحاذاة نهر دجلة، فمقاهيه معدة لاستقبال المتسكعين كل مساء على شاطئ النهر والطامحين الى اكلة سمك مسقوف، وكل منهم على كثير امل ان يحظى بمجلس يدنيه من شاطئ النهر المنساب بكثير من البطء والتثاقل، ولم يكن غير مقهى واحد يختلف عن الباقين بطاولتي البليارد اللتين فيه، وقد لازمته لفترة من الزمن ضمن ثلة من الاصدقاء كان منهم الشاعران حسين مردان وكاظم جواد والفنان شاكر حسن وقد يختلف اليه من آن لآن اصدقاء آخرون وبشكل طارئ، فنوسع الجلسة الى ما بعد منتصف الليل حتى اذا ما باشر عمال المقهى بغسل ارضيتها ولم كراسيها انصرفنا عنه لنتسكع في الشارع، وذات مرة سهرنا على احدى مصطبات ابي نواس، انا وصديق آخر لنا وحسين مردان الى الفجر لنتمتع بشروق الشمس على دجلة، وعندما اشرقت كنا جميعا نائمين بعد ان استأثر كل منا بواحدة من تلك المصاطب، ولم يكن امر ذلك غريبا عليّ او على حسين مردان، فقد افترشناها غير مرة وكلما الجأتنا الحاجة اليها بعد ان نكون قد عجزنا عن توفير اجرة الفندق الزهيدة جدا.

وتبقى لنا من مقاهي شارع الرشيد مرامي خطانا اليومية، فان رغبت في ان انفرد بالسياب، انتبذنا لنا مقعدين في مقهى يجاور المكتبة العامة في باب المعظم، ليقرأ لي من جديده واقرأ له من جديدي ونتبادل الاراء بشأنهما او بشأن ما وقعنا عليه من جديد زملائنا في تجربة الحداثة، وان اخذت حسين مردان حماسته للمشاكسة دلفنا الى مقهى الزهاوي للالتقاء بشاعر تقليدي كنا ندعوه بشاعر المصايف لتأليفه ديوانا بقرابة ثمانئمة صفحة في وصف المصايف العراقية، وكلها من الشعر التقليدي الرديء، وما ان يرانا قادمين الى حيث هو جالس حتى يبادرنا بهز عصاه الغليظة لنتبعد عن مكان جلوسه فان لم نمتثل له نالتنا ضربة مؤلمة على كتف واحد منا، ولذنا بالهرب من غضب الرجل المسن وسبابه وخشية ضربة ثانية اكثر ايلاما..

وعلى مسافة قريبة من مقهى الزهاوي، ثمة مقهى آخر هو مقهى (حسن عجمي) كان يرتاده احيانا الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري، وكنا نأنس بلقائه، وبحديثه الشائق، ونكبره شاعرا وسياسيا وثائرا، وكان الى جانب ذلك صاحب نكتة لاذعة لايرويها الا وقد حملها معاني البت هذا الذي الى جانبه او مدت بنفسها الى رئيس الدولة وزبانيته من المنتفعين والمتملقين وهو معنا على مزاجين، مزاج المدافع عنا حينا في اننا نحاول شيئا، ومزاج من يرى في بعض ما نكتبه تطرفا لامعنى له، وتكلفا للجدة لاجدوى منه، ويظل، فيغير هذا المزاج او ذاك، معنا في نزوعنا الثوري العارم على مختلف توجهاته، فالجواهري الفذ كان دائما من المبشرين بالفجر الجديد وكان دائما من بعض المكتوين باتونه،، وثمة شعراء آخرون ممن ينظمون الشعر على النمط القديم يتحلقون حوله او يتخذون مواقع على مقربة منه، وفي العادة ان يتوسطهم الكاتب والصحفي عبدالقادر البراك مع نرجيلته التي لاتفارقه مطلقا فهي كما يسميها عشيقته الازلية..

وكان مقهى (الرشيد) سيد مقاهي شارع الرشيد ففيه يلتقي الكثيرون من رجال الفكر والادب وممن يؤثرونه على غيره بأثر من مكانة روّاده وحسن فرشه اذ ان كل مصاطبه مفروشة بالسجاد يوحي بوثرتها وبالدفء في ايام الشتاء، واترك للاستاذ اللغوي ابراهيم الوائلي وصف هذا المقهى الذي كان واحدا من رواده ومنذ بداية افتتاحه في عام ١٩٤٠ يقول الوائلي: نحن في اوائل العقد السادس من هذا القرن والمقهى مازال مزدحما بالمرتادين والحاج حسين صاحب المقهى يجلس الى صندوقه عند الباب، والكهل الطيب، (وهل) يفترش الرصيف قرب باب المقهى وقد نشرت الصحف والمجلات وهو في كل صباح ومساء يطوف داخل المقهى ويوزع الصحف على الراغبين في قراءتها ويأخذ من كل واحد اجراً لايتجاوز عشرة فلوس.

انتقل بعضهم الى مقاه اخر وبقي رواد الشطرنج والنرد والنرجيلة واصدقاء مازالوا يترددون صيفا او يستدفئون شتاء في اوقات الراحة ومنهم خاشع الراوي وفؤاد عباس والمحامي محمد نجيب الجبوري وعبدالقادر رشيد الناصري وهؤلاء الادباء والشعراء ودعوا الدنيا الى ظلام القبور.

والشاعر بلند الحيدري يسلم ويجلس وهو يمزج الضحكة الخفيفة بالانفعال والتذمر من فراغ الجيب ولكنه لاينسى الحديث في الشعر واللغة ولعله كان يوافقني في الراي.. ان الشاعر بلا لغة كالجندي بلا سلاح،، وكثيرا ما يدخل الشاب النحيل بدر شاكر السياب وهو يتهادى في مشيته ويتأبط كتابا فيجلس ويشارك في الحديث.. وفي مقعد قريب يجلس الشاعر حسين مردان والسيجارة لا تفارق شفتيه واحاديثه في الشعر والنقد.. ويضيف في حديث ذكرياته الذي نشرته له جريدة (الثورة) العراقية في الخامس من شهر شباط ١٩٨٧، قوله: وفي نهاية المطاف مررت مجتازا باب المقهى فاذا بشخص يسرع الى الخارج ويدعوني الى الجلوس انه الصديق الراحل المحامي محمود العبطة فلم يكن بد من الاستجابة لدعوته، ولقد كانت الزيارة هي زيارة الوداع للصديق العبطة وللمقهى الذي كان يصارع القدر في ساعة احتضاره، لقد انتهى بانتهاء مقهى الرشيد ناد من اضخم النوادي الادبية في بغداد..

ويصير للحداثة ايضا مقاهيها،، فها هما مقهيان جديدان يتوجان مقاهي شارع الرشيد، ويخرجان بنا من تلك المقاهي التقليدية ومن اجواء النرد والدومنة والنراجيل والمصاطب الخشبية والموسيقى والاغاني العربية الى حيث الكراسي الوثيرة والموسيقى الكلاسيكية الغربية، وان كنا لم ننقطع كليا عن مقهى الرشيد خاصة، كان اسم الاول منهما (المقهى السويسري) والثاني اسم (المقهى البرازيلي) وكان احدهما يجاور الاخر وقد كان (المقهى السويسري) ملتقانا المفضل والذي اعطيناه الكثير من خصوصيتنا، فالموسيقى الكلاسيكية تستوجب حسن الاصغاء وعلى الاحاسيس ان تدور بخفوت كلي وعلينا ان نبحث من خلال هذه اللقاءات عن انفسنا في الجديد الذي يفردنا بما نتمايز به.

يقول شاكر حسن آل سعيد في كتابه (فصول عن الحركة التشكيلية في العراق) الذي صدر مؤخرا: ((..وقد صادف في نفس الفترة، اي عام ١٩٤٥ اتفاق جماعة من الاصدقاء جلهم من شباب الفنانين والادباء على تاليف رابطة تجمعهم سموها جماعة –الوقت الضائع– وهؤلاء الشعراء هم: بلند الحيدري، نزار سليم، سلمان محمود حلمي وحسين هداوي وابراهيم اليتيم، ثم انضم اليها ايضا عدنان رؤوف وحسين مردان وابراهيم ابو الفتوح وكان هذا الاخير مدرسا مصريا انتدب للتدريس في احدى كليات بغداد وكذلك فؤاد رضا واكرم الوتري.. اتخذت جماعة الوقت الضائع اول الامر مقهى (كافيه سويس) في شارع الرشيد مقرا لهم يلتقون فيه للنقاش وقضاء الوقت.. وقد استطاعت ان تنشر عدة مطبوعات مثل ديوان خفقة الطين للشاعر بلند الحيدري عام ١٩٤٦ ومجموعة اقاصيص بعنوان – اشياء تافهة– لنزار سليم كما اصدروا نشرة بنفس اسم الجماعة ظهر منها عددان.

ومن خلال تلك النقاشات الطويلة ومن خلال ما كنا نسمع من اهالينا بأن الفن والادب مضيعتان للوقت ومن خلال سماع احدنا برواية مارسيل بروست (البحث عن الوقت الضائع) وحماسة نجيب المانع الطاغية ولدت فكرة اصدار نشرة باسم (الوقت الضائع) لنقول فيها كل ما هو غير مألوف في الصحافة العراقية آنذاك، ولنعلن عن سعر لها غير مقبول نهائيا، ان نبيعها بخمسين فلسا وهو ثمن باهظ لنشرة بثماني صفحات، وضمن مدارس الطلبة الثانويين واروقة الكليات رحنا نوزع العدد الاول، وسرعان ما عم لها صدى واسع حفزنا لاصدار العدد الثاني، واحسسنا بكبر تحدينا كلما وقعت اعيننا على كتابة طبشورية في هذا الحائط او ذاك تندد بنا وتشوه مقاصدنا وتدعو الناس لمقاطعة (الوقت الضائع) فاضاعة للوقت قراءة (الوقت الضائع) وصعب على هؤلاء الشبان ان يوفروا المال للاستمرار بها فانقطعت عن الصدور،، كان نزار سليم يقوم بتصميمها وحفر كلاشئها، وحسين هداوي يكتب لها ويترجم بالاشتراك مع سلمان محمود حلمي وابراهيم ابو الفتوح، وكتبنا رسائلنا لغير واحد من ادباء العالم فلم يلب دعوتنا الا الكاتب الامريكي وليم ساروبان الذي بعث لنا باقصوصة صغيرة بعنوان (مهزلة ان تموت ولاتدفن اذ لايزال بامكانك ان تسير)، ويكتب لنا الرسام البريطاني (كنت وود) من انطباعاته الفنية، ويكتب لنا سعيد علي مظلوم عن السيمفونية الحزينة لتشايكوفسكي ويكتب لنا جواد سليم، ويكتب ابراهيم اليتيم عن رجل (وضع قدميه في جيبه وسار) وكنا نراجع كل ما يبعث الينا في (المقهى السويسري) ثم اتكفل بأن احمل ما اعتمدنا نشره الى مطبعة الزمان، وتصحيح مسوداته.. كل ذلك كان يجري بكثير من الجدية والدأب ونحن نحلم بأن يتعقبنا المجد الهائل في كل مكان من بغداد.

فنون عربية العدد الثالث 1982

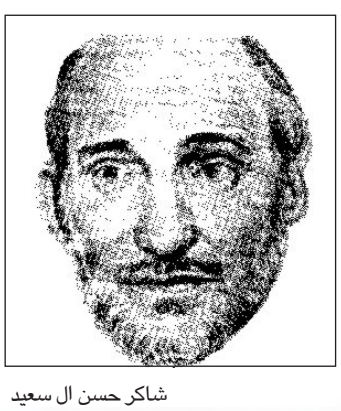
شاكر حسن ال سعيد

ابراهيم عرب

مقهى المعقّدين وليالي أنسهم

فيصل ابراهيم المقدادي

ان الاحتفاء بموضوع (مقهى المعقدين) و(ليالي الانس) تعتريه احيانا احاديث مجتزأة تتقارب وتتفاعل وتتمدد وتتقلص حسب المعلومة وتفسير صاحبها وفهمه لمنطق معاني الاشياء في اشاراتها وتميزها في التضمينات الابداعية وما بدا انذاك اشد جرأة واكثرها مغامرة في البوح، لذا اصبح من الاهمية بمكان الحديث عن بعض المكنونات في افئدة (المعقدين) بشكل رؤى ومعاناة لادباء ما كانوا يطمحون الى النشر او الادلاء بابداعاتهم من على المنابر الرسمية لذا بقيت نتاجاتهم تدور وسط مرتادي ورواد واصدقاء مقهى: (المعقدين) وكازينو: (ليالي الانس) واكثرها ضاع وسط مشادات وسجالات حادة تركت بعضها ممزقة على الطاولات او تلفت بعد رمي الحقائب اليدوية بدجلة... وما تبقى منها وبمحض المصادفات انما لاهتمام: (سلمان الاسود) بتلحين وغناء بعضها..

للمعقدين حينذاك.. واذا ما تركنا جانبا المعقد الاول: (الشاعر عبدالامير الحصيري) لدراسة اعمق من قبل اقرب اصدقائه.. سيكون حديثنا عن الشاعر: (وليد جمعة المشهداني) وهو الابرز في الاثارة بطريقة تعامله مع اللغة الشعرية وصورها بابلغ الدلالات متموجة بحيوية نهر قصيدة.. وحتى حين تتشتت فهي تشد الى تشكيل فعال محسوس ومثير في آن واحد وقد يكون لبعض قصائده وقع اخر.. يدعونا لفهم ظاهرة: (التعقيد والمعقدين) انذاك بما تكتنزه من انفعال يعالج صور افكاره المختلفة المستوحاة من تعقيد الحياة نفسها.. ومن حضور (للغة التفجير) التي ميزت الموجة الادونيسية..

(خذ هذا الكف
واستمطر شجر الدنا
وتحزب للطلقة
حين يكون القذف
وجها محجوب الرؤى
فيا وطنا في القلب
اعطيتك روحي
فاعطني الدرب
لكي تهدأ جروحي
للحب وللغبطة
شجر وسكوت فارسم في الطلقة
وطنا سيموت)

وبعض صور القصائد تنقلنا الى اجواء المواقف السياسية والفلسفية.. لتخلق متعة الموقف والدهشة والحضور الفكري بتعابير مكثفة مختصرة وقوية ففي قصيدة: (جلد السلحفاة) يكون الايقاع بحضور الرؤية الخاصة نثرياً في شكلها تحمل دفقات شحن شعرية دون التقيد بوزن او قافية فهي شعر حر قد تختلف في طول اسطر صورها بما يتوافق والمضمون او الصورة:

يحمل الحب
مراسيم غوايا
والتماسات قبول
عندما يصبح وضعا
قائما.. تعتاده
انت يا ضدا
على كل اللوائح
×
انه يسقط في القلب حكاية
عن نهارات يصب التوق فيها لوعة
التوق الرضية
وجسور اللغط الموتور تمتد الى المعشوق
ليلا
وتمد الشارع المكتظ بالاشياء حيث
الذاكرة
ثم لا تقدر ان تدعس غير الكبرياء العابرة
×
انت ما زلت غرير الخطو يا قلبي في هذي
الدروب
فابتعد
ليس لك الحب.. وجرب لعبة اخرى
صغيرة
واندلق من دورق الصد
وغامر ثم عد
ومتى ما شئت التمّ على نفسي
وامسي صدفة
واداري عتعتات الشجن الناغر
بالسخرية الحمقاء مرة
وباسفار الصماخ الفذ في الحجرة
مرات اخر
عابرا درب الزمان الكهل
منفيا الى بقعة شمس مظلمة
حيث لا يقدر هذا الوجد ان يسرق مني
سلحفاتي الهرمة)

ان التعبير الحر هو النموذج الحي لما كان يعانيه جيل كامل ويبدعه (المعقدون) في مقاهيهم البغدادية باشكال نفسية لا واعية متمردة بالرغم من قساوة الغربة المتلئة بالوجد الحار والشاعر لا يكتفي بممارسة لعبة الصياغة البنيوية بل بمضمونها التحريضي معبرا بذلك على وطأة الحياة وثقل ما كان سائدا في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي.. كما ان محاولة تأسيس ما يميز وحدات وعناصر القصيدة الشبيهة بالبيان الثوري للتمرد على ما كان سائدا:

(اخذ جرح الوطن مرة
وتعال هنا
وارسم جنح عصفورة
علينا
وكول الدنيا مشمورة
جناح هنا
وريش هنا
وخريطة مسودنة بحبنا
اللي ما شفناه
ولك كون الوطن ورده
لشتلها على جتافي
اخذ مني جفافي
وروح.. لا اني ولا انت
اخذني وروح بالسكته
بلكي تسكت السكتة
ونصرخ.. والوطن رده..!)

وحين يحاول: (وليد جمعة) ان يغمس صورته الشعرية بعامية (الشوغات) و(العشك).. (بتشمير الجراح).. و(ضياع السلاح) انما يجاهر بوعي حلمه خاصة (قبل وبعد) نكسة حزيران عام ١٩٦٦-١٩٦٧م ثم وصول حزب البعث ثانية لسلطة العراق عام ١٩٦٨م وما اثخنه من جراح الادباء والفنانين انما يشكلها بمهارة مؤسسا عوالم قصيدته الشعبية بديناميكية فعالة لتكون في النهاية: (خيمه بليل متغرب..):

(حبيبي شال لي جنحاته
وشمرلي بليل شوغاته
وكال العشك شال وشاب
وطلعت اله شيباته
وبعد كل الحجي الساكت
لكيته مشمر اجراحه
فاتل وضايع اسلاحه
ولجن الكلب يحبيب
طفل اشكر على اجتافي
وتعال وصير يحبيب
خيمة بليل متغرب
واكعد واجرع الدمعة
على جرح الوطن
متكلي منو مثلك
طك ونسى شوغاته)

ان اكثر الابداعات الادبية للمعقدين في مقاهيهم انما كانت تهدف بالدرجة الرئيسة الى محاولة الحوار الحر والمستفيض حول علاقة الادب (الشعر بالذات) مع الفسلفة واللاوعي في اسسه الايديولوجية والفنية يذكر ان تلك الابداعات قد جسدت وبشكل طبيعي مختلف المسارات متمثلة باشخاصها:

عبدالقادر الجنابي باتجاه: (السريالية) وعبدالامير الحصيري.. (اللازوردية) في ذاكرة عزيز السيد جاسم وفاضل العزاوي ووليد جمعة وعبدالرحمن طهمازي وخالد الشطري ومنقذ شريدة وشريف الربيعي ونبيل ياسين وعلي الجبوري وفيصل لعيبي وجليل حيدر وحسين الحسيني ومظهر المفرجي واخرين..! لابداع المنافي ذلك المصير المحتوم الذي ادركه الشاعر وافصح عنه: (محمد سعيد الصحاف)× كقرار: (عقائدي من القيادة.. الخ)! لذا كانت المواجهة صريحة:

(في الطرقات الخلفية تتجول افعى
ولاني لن اشرب سما ما
او قل: ان اللحظة
مثل الصابئة الموتورة
لا لن اتطامن بالكرسي
او اصمت..
كي يتجاوزني المتحذلق
فحين يصير الحب فراشة
ساكون الضوء
وحين يكون الحب الضوء
فلن اكون حتى النفس المقوت
فراشة)

ومنتدى (المعقدين) او (ليالي الانس) لم يشترطا بعد ذلك على (معقديهم) مذهبا معينا او اتجاها بالذات لذا اختلفوا: (... تشاتموا وتباصقوا.. الخ) وتدخلت الشرطة مرة.. لكنهم سرعان ما عادوا للمعقدين كاسرى مصير.. مطربين على حكايات: (عباس البدري وحسين الحسيني وعادل كامل) متلذذين بروايات: (القلعة الخامسة ومخلوقات فاضل العزاوي) و(شقة في ابي نواس لبرهان الخطيب) و(لعبة) يوسف الصائغ ففي الوقت الذي كان:

كان نبيل ياسين يقرأ من ديوانه البكر: (البكاء على مسلة الاحزان) وليس بعيدا عنه كان طهمازي عبدالرحمن (يجلد الوشم) لعبدالرحمن مجيد الربيعي في صحيفة التآخي وعلي الجبوري في زاويته المهيبة يتمتم لمقربيه ترجمة (لغوته):

(انا امضي عكس اتجاه الريح
والعواصف والمطر
متلذذا عظيم الالم
دائما
دائما
دائما..!)

ثم يلحق بها قراءة لـ: (كفافي):

(اذا كنت قد خربت نفسك
في هذا الجزء القصي من العالم
فستبقى خرابا اينما حللت..)

ودون استئذان يرتفع تدريجيا صوت: (سلمان الاسود) مغنيا لحنا له لقصيدة غنائية كتبها: (محمد الخفاجي) للاذاعة لقد فاجأ (الاسود) الشاعر الخفاجي بلحن اخر اعترف المؤلف بافضليته وتنوع ايقاعه الغجري لذا حين انساب اللحن بـ:

(نونة تدكَ بنونة
ومكحلات عيونة

رواد مقهى المعقدين ويبدو ابرزهم بسام فرج وجليل حيدر وشريف الربيعي ومظهر المفرجي ووليد جمعة

آه حلوة حلوة عيونة
ومكحلات عيونة
واكفة بمشراق السلف
تنثر شعرهه
مكتوم حضانة يدك
جوبي لخصرهه
العين سودة يابابة
والكحل موده
ويا شلايل الكهرب
يتعبه ظفرهه.. الخ)

تجاوبت معه ايقاعات الاكف وترديد اللازمة، ولا غرابة بعد ذلك ان تزداد الطلبات كي تطول قصيدة لرامبو فيغنيها: (الاسود) بمزاج تحويل الامسية الشعرية الى غنائية:

(شبابي الخامل
كم انت مستعبد
برقة الحس
ضيعت ايامي
عهد الصبا بادا
يا ليته عادا
ليحرق القلبا
قد قلت:
يا نفسي ازهدي
لا تتركي احدا يراك
لا تحزني
لا تحلمي
بصبابة عليا‌هناك...الخ!)

ووسط هذه الحيوية من القراءات المتنوعة يجري ايضا الثناء على بائع بسطة الكتب الجديدة... (بناي) قرب (مكتبة المثنى).. ويجري التطرق لجايجي المعقدين (ابراهيم.. ابو خليل الورد) وخياط المجموعة (توفيق) وراعي خوار: (الواقع والبديل في المسرح العراقي) احمد فياض المفرجي تمكنت ظروف تبلور الحداثة الادبية الجديدة بمفهومها العصري في وحداتها والنوع والعموم والمنطق والمعقول مما كان غير معروف في الادب الرسمي السائد صفة في مفهومها العراقي بان تكون اناشيد ثورية لبعض اولئك الشباب الاشداء الذين اندفعوا لاكثر بقاع الصراع الملتهبة: (لبنان وكردستان العراق) لاستلهام دروس الكفاح المسلح ومن ثم استشهادهم في خضم المعارك هناك امثال: (رياض البكري ومعين النهر وعبدالجبار عبد الله وابراهيم زاير وزهير علاوي ومحسن طليعة وشعبان كريم) مستفيدين مما اشاعته الموجه: (الجيفارية والكاسترووية والدوبروية والقيادة المركزية بقيادة صالح العسكري واحمد الحلاق ونوري العاني وخالد احمد زكي واخرين) من فكر ثوري متمرد وصار البعض الاخر في الضد منهم حين تمكنت الخيبة منهم فانكفأوا اما على دوائر المخابرات والامن او على انفسهم متمتمين تعويذة (رامبو) من على ظهر (مركبه السكران) كملاذ تعقيدي لهم.. وقليل جدا استوعبتهم (الحاوية) الرسمية فاستقاموا في مستنقعات الاذاعة والصحف والمراكز الثقافية بالخارج او مخبرين.. انبثوا في مختلف المجالات وعديدون هاجروا: (فوزي كريم الشاعر والشاعر) واكثرهم درامية اولئك الذين ماتوا كمدا في فنادق الدرجة العاشرة.. او فقدوا نهائيا فهل يعرف احد الى اين انتهى المطاف بالشاعر: (ابو سرحان)؟؟ وماذا كتب قبل ان يودع اسرار هذا العالم (البديع)؟! ففي الوقت الذي بقي اخرون مرددين: (كلشي صح) التهكمية وبقي صدى صوت (سلمان الاسود) مرددا كلمات (وليد جمعة) بين رواد (المعقدين ولياليي الانس):

(كلشي صح.. كلشي زين
منهو اليكول اكو بطالة
بهذا الوطن الا بنذالة
لو تحكمون بعدالة
ما بقى اي شيء شين
كلشي.. كلشي..
كلشي.. زين..!)

واذا ما صادف ان مر بعض (المريشون): (عبدالرحمن الربيعي وسامي مهدي وطه البصري..) يصبح الصمت لزاما وان كانت من باب المصادفات و... الاستعراضات.. وفي المساء اعتاد رواد (المعقدين) ان ينتقلوا لمقهى (ليالي الانس).. او لمقاهي ابي نواس (قرب الجسر) مباشرة حيث يلقون حفاوة خالهم: (موسى العظيم) بترحاب: (هله.. هله عيني.. هله بولد اختي.. هله.. ربع العرق اليوم بـ ١٢٠ فلسا.. يا بلاش عرق ام كاترينا.. خلاصة تمر زهدي.. صناعة بيت مسيحي..!).. وبعد الساعة الحادية عشرة.. بعد ان تخف وطأة هستيريا الشعر والاغاني والمعارك الكلامية.. يصبح لزاما على ولد الاخت اكمال طقوس اليوم على اكمل وجه (بطلة) على (ملهى ليالي الافراح) حيث (يرخي) حراس شباك التذاكر انضباطهم لامتلاء القاعة.. حيث يختار (المعقدون) الزوايا المعتمة وقوفا او جلوسا للارض مهللين.. مبدين اقصى درجات التشجيع والاعجاب (بالتصفيق والصفير) بفن خالتهم.. (لميعة توفيق) على اغنيتها:

(نيشان الخطوبة
اليوم جابولي
محبس من ذهب
وكلادة قدمولي
حبيبي اللي اوده
خطبني ووفه بوعده
....الخ)

وما بين هذه الاغنية وغيرها كانت (لميعة) تلهب حماسهم بترحيبها: (هله.. هله.. هله بولد اختي..!) وهذه... كانت لهم افضل هوية ودعوة مجانية يحاججون بها حراس الملهى وشباك التذاكر عن اهمية حضور: (ولد الاخت) وقربهم من (مصادر صنع الفن) في الملهى نفسها...!

وفي نفس الفترة كان عديد من الفنانين المسرحيين يحاولون بعروض مسرحياتهم حل رموز المعادلة الاجتماعية والفكرية الصعبة وتحقيق ذاتهم فمثلا: برز الفنان عوني كرومي بعرضه (كاليغولا) وعلي ماجد وعبد المطلب السنيد وحميد الحساني ومحاولات الفنان (جعفر علي) في احتواء حركة الشباب في مسرحية: (فيتروك) والتي جاءت مميزة ورائعة.. صاغت تطلعات الشباب..! الى جانب ابداعات المخرج الفنان: (عبدالوهاب الدايني) في تمثيله: (عبود يغني) وفي مسرحية: (العطش والقضية) لنور الدين فارس.. انها حقا فترة قلقة وربما كانت مسحة الحزن المرتسم على محيا اعمالهم.. تحلم.. ايضا.. ولكن بألم..!

ابو سرحان وفيصل لعيبي وحسين حسن واخرون

(في لجة الاعصار
وفي اصطخاب المدن المسببة
مذهول اجوب عوالم المسرح
علني ألقى عرضا جديدا
اسقي به هيام روحي
وازواج به وحدة آلامي
اموت عشقا
وأهيم موتا
واجوب يا روحي
طرقات الكرخ
عل جثة المسرح المشنوق
بالكرادة
يدلني درب الوطن
علني افرش دربه المحزون
وردا
وارسم جدرانه المسخ
اشعارا
وافجر صمته الحجري
ثورة
تحكي نشيد الفقراء
هيا قديني يا رياح
انا عاشق ولهان
متعب دنياك الزيف
قديني

السبت..
الاثنين..
جمعة الشؤم
ضياء المسرح القومي
عرض الساعة الثامنة
موسيقى.. ستار
الليلة السكرى
وعمر الزمن الضائع
في الذاكرة
اواه ياليلي
ثلاثة سبعة
ثلاثة عشر..
تزاوج وخمر
وعرش الملك المخلوع
سلالة ابدية لكم
ولتصمتوا
موسيقى
– ستار–
اواه يا روحي
لكم جبتي
بحار الموت
جوبي..
جوبي..
جوبي..!

ولعل (ذروة دراما المعقدين) بعد شهرتها هو ما حصل للبعض منهم في صيف عام ١٩٧٣م حين داهمها: محافظ بغداد حينذاك: (خير الله طلفاح) وزبانية الاخلاق المرافقة حيث امر بتمزيق سراويلهم وصبغ ملابسهم وتشويه تسريحات شعرهم (بحلاقة سريالية).. ثم دارت بهم سيارة الشرطة المكشوفة اكثر شوارع بغداد وازقتها ازدحاما سعيا (لفضح الخارجين) عن الزمن العربي البديع.. ولتطهيره من (المخانيث) و... (رسل الثقافة المستوردة..!)... ولم (يفك منهم الياخة).

الا بعد ان اصلى شرف امهاتهم واخواتهم ورجولتهم بأقسى الشتائم والاوصاف.. وبعد ان دفع له كل واحد منهم (١٥) دينارا هذه وغيرها كانت الحاضنة لقصائد من نوع مباشر اخر فقصيدته: (أنا).. ثورة بصورها ومنهجها المتخيل يدعونا فيها لتبنيها.. كي تنتصر:

(أنا في آخر الانباء
كالثورة
اجيء على السهرة
وازعج نومك الوسنان
تعال اليوم يا انسان
تعال الان
ومزق صدفة الموت
انا.. صوتي
وكل حرارة الموت
نجمع اخر الانباء
عن الاجداد والابناء
لكي نحتضن الثورة
لكي تنتصر الثورة
لكي لا تعذر الثورة)

غير ان حساسية الشاعر لا تدعه ان يصمت او ان يصرفها بعيدا عن التطهير المعرفي الابداعي او يقصيها، لذا جاءت قصيدة: (١٥ واحدا و: من وزير الدخلية لرئيس الوزراء) حادة تنسجم والاوصاف العامة للشاعر وبكل ما تجنح اليه لغته لفضح كل ما اخفاه النظام الاجتماعي من رياء:

(للذي يسكب ماء الوجه فوق الصحف
المستهلكة
للذي يسكت في وقت الظهيرة
للذي يصنع للاطفال حلوى
للذي قال لنا: لن ينتكس!!
للذي عانقها قبلي وبعدي
للذي يكرهني
للذي يعشق ظله
للذي يخجل ان يلثم في المرآة ظله
للذي يرسم لوحات عن النسوة في الرأس
ويشتمني سياسة
للذي يرعبه صوت رصاص في الجوار
للذي ينبض في الصدر وقد يخذلني بعد
ثلاثين دقيقة
للذي خان المناشير العتيقة
للذي يدلف مرحاض الرصانة
للذي علمنا حب الكتب
للذي ينشر هذه الكلمات
عفطة
قبل صباح الخير حتى...)

ان الصور الشعرية المتدفقة في مختلف قصائد الشاعر: (جرح الوطن) (.. كال العشق شال وشاب وطلعت اله شيباته..) و (خذ هذا الكف واستمطر شجر الدنا..) و (.. حين يكون القذف وجها محجوب الرؤى) و (مزق صدفة الموت) و (حين يكون الحب فراشة ساكون الضوء.. وحين يكون الحب الضوء فلن اكون حتى النفس الممقوت فراشة..!) و (درب الزمان الكهل) و (بقعة شمس مظلمة) و (سلحفاتي الهرمة)...الخ!! انما يقدمها في اغراض مختلفة محكمة الصياغة غزيرة الدلالات والمعاني.. غير محدودة بابعاد.. نسجت جراء ضغوط نفسية لا شعورية شديدة الوطأة.. تفجرت بشكل صدمات.. شتائم.. (عفطة) ليست نشازا على الشروط الفنية اللازمة لبناء الصورة في تناقضاتها وتضادها غير الطبيعية بل تكاملا ضروريا.. لانه لم يكتف بانتقاء: (اجمل الكلمات) والتعابير واستخدام ابشعها في التداول الشعبي.. في الكلام العادي.. عفطة كمفردة تسخيف وتهكم بذيئة.. ينسجها في القبول كواحدة من ضروب الاحتجاج والتسخيف الذي يميز قاموس: (وليد جمعة) الشعري.

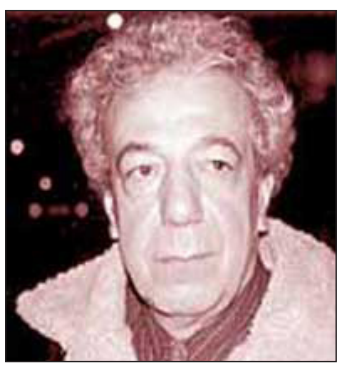
عبد القادر الجنابي

جليل حيدر

فيصل لعيبي وعوني كرومي

المقاهي والأدباء

المجالس مدارس.... هـذا ما يشير إليه المثل الشائع والمجالس اضرب عدة منها المجالس الأدبية إذ تضرب جذور هذه المجالسـ إلى العصر الجاهلي والعصور التي بعـده ولقد اشتهـرت المجالس التـي كانت تقام في الأسـواق مثـل سوقـي عـكاظ والمربـد وغيرهـا والتـي كان الشعـراء يذرعـون البـوادي ويضربون أبـاط الإبـل كي يصلـوا إليها ليسمـع بعضهم بعضا ويحكـم بعضهم على بعض وبتقـادم السنين تحولت هـذه المجالس إلى الديارات(جمـع ديـر) والحانات ذلـك في العصـر العباسـي أمـا في العهـد العثمـاني حـين اخذ الناس يشربون ما جادت بـه سفن البحار مـن مشروبـات جديـدة كالشـاي والقهـوة والقرفـة (الدارسـين) والحامـض وغيرهـا فضلا عـن شيوع ظاهـرة التدخين بنوعيـه (السجائـر) و(النارجيلة) احتـاج الناس لتعاطيهـا في المجالس المخصصـة لهـا فافتتح أول مقهـى في بغداد في العهـد العثماني وسمي هذا المقهى بـ (خان جغان)

وتتـالى بعدها افتتاح المقاهـي بصور تترى من اجل شرب الشاي والسجائر والنارجيلة والاستراحة من تعـب الطريـق والتحدث إلى الأقـران والخلان ومما يروى إن احد الزائريـن للعراق سئل عند عودته عما رآه في العـراق فقال: (لقد رأيت بين كل مقهى ومقهى مقهـى !!!) يشـير بذلك إلى كثرة المقاهـي في العراق ولقـد اختص كل مقهى بنوعيـة زبائنه ومريديه فهذا مقهى للبنائين وعمال البناء وذاك مقهى (المطيرجية) وهكـذا.. أما ابـرز المقاهي التي برزت علـى الساحة فهـي مقاهـي الأدبـاء والمفكريـن والتـي بـزت بقية المقاهي وفازت بالقدح المعلى.. أما القهوة لغة الخمر ولقد استعملت هـذه الكلمة – قهوة– لتطلق على البن المغلـي لأن البـن والخمر يقهيـان (يذهبـان) بشهوة الطعـام والرجـل القاهي أي الرجل القـوي ذو القلب المستطـار قال الشاعـر: (راحت كمـا راح أبو رئال / قاهـي الفؤاد دئـب الإجفال) اتخـذت المقاهي الأدبية في القـرن العشرين طابعا مميـزا لأن بعض مريديها وزبائنها يكتبون نتاجاتهم من شعر ونثر على كنبات هـذه المقاهي وطاولاتهـا ومن اشهر المقاهـي الأدبية في العـراق وبغداد خصوصا مقهى (الزهاوي) وكان يسمـى بالأمين واكتسب اسـم الشاعر لكثرة جلوسه فيـه وكذلـك مقهـى (البرازيليـة، البرلمـان، البلديـة، السويسرية، المعقدين، الشابندر، حسن عجمي، الخ) فقد فضل المثقفون ارتياد المقاهي لأن المقهى بمساحته الصغيرة وكنباته المتقابلة والمتعاكسة يتيح لهم رؤيا واسعـة للمجتمع وأخباره وهمومه وبالتالي المعرفة بهذه الأمور تؤدي إلى المعرفة بالحياة فضلا عن ذلك فـإن الجلوس في المقهـى ورؤية الخارج مـن شارع ممتـد مترامـي الأطـراف بتفرعاته الكثـيرة وحركة الناس فيـه جيئـة وذهابـا –بل مجـرد مراقبـة هذه المناظـر – تجعل الإنسان مشحـوذ العقل كثير التأمل والتفكـير في أحـوال هؤلاء المـارة ومـن يطلع على نتاجـات أدباء المقاهي –إن صـح المصطلح– يجد في شعرهـم ونثرهم مـا هو يومي ومتـداول على السنة الناس بصورة واضحة وفي مقهـى الزهاوي نفسه كان الزهـاوي يرد على مقـالات عباس محمود العقاد وفي هـذا المقهى أيضـا اشتعلت الفتنـة والخصومة التـي طالت الزهاوي والرصـافي التي أذكى جذوتها أحمد حامد الصراف التي تـرك على إثرها الرصافي الجلوس في هذا المقهى بل إن المقاهي الأدبية لتزدهر بالزائرين لوجـود الشخصيات الأدبيـة فيها لاسيما المشهـورة منها فالمقهى يلبي حاجـة روحية للإنسان للتـداول والمباحثـة حـول أمـور الحيـاة المتعبة من همـوم سياسيـة وأدبيـة واقتصاديـة واجتماعيـة وغيرها ومن أبرز رواد المقاهي من الأدباء والمفكرين علـى سبيـل المثـال لا الحصـر نذكر (حسـين مردان، بلنـد الحيدري، السياب، زهـير احمد القيسي، غائب طعمـة فرمان، رشـدي العامل) وغيرهـم ممن تطول القائمـة بذكرهم ومع شرب الشاي وتدخين السجائر تبلـورت الحركة الأدبية والفنية في العراق وصدرت منها المجـلات الأدبيـة والصحف وفيهـا كانت تكتب مسودات القصص والروايات مـن قبل أدباء العراق ومفكريه الذين جلسـوا في هذه المقاهي ليستريحوا مـن تعب العمل أو الدراسة أو السفر وغيره فوجدوا في المقهـى خير ملاذ كي ينفقـوا فيه أفكارهم لتتلاقح مع أفكار أقرانهم فإلى مقاهي الادباء والفنانين تحية وسلام.

ذاكرة عراقية

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

التحرير : علي حسين
التصميم : نصير سليم التصحيح اللغوي : يونس الخطيب